كارت شحن

مجموعة قصصية

obeikandl.com

اسم الكتاب: كارت شحن

التأليف: وداد معروف

موضوع الكتاب: مجموعة قصصية

عدد الصفحات: 88 صفحة

عدد الملازم: 5.5 ملازم

مقاس الكتاب: 14 × 20

عدد الطبعات: الطبعة الأولى

رقم الإيداع: 2589 / 2016

الترقيم الدولي: ISBN : 978 - 977 - 278 - 543 - 6

التوزيع والنشر

دار البشير للثقافة والعلوم

darelbasheer@hotmail.com

darelbasheeralla@gmail.com

ت: 01012355714 - 0115280653

1437 هـ
2016م

جميع الحقوق محفوظة

يمنع طبع هذا الكتاب أو جزء منه بكل طرق الطبع ، والتصوير، والنقل، والترجمة، والتسجيل المرئي والمسموع والحاسوبي، وغيرها من الحقوق إلا بإذن خطي من :

دار البشير للثقافة والعلوم

obeikandl.com

كارت شحن

مجموعة قصصية

وداد معروف

دار البشير
للثقافة والعلوم

obeikandl.com

obeikandl.com

الشمعدان النحاسي

– احملي معي الحقائب يا نهال وأسرعي؛ تأخرنا على جدتك، ولن تتعشّى إلا إذا عدنا.

قطع التاكسي المسافة من شارع الصعيدي، وحتى شارع "مِيّة " كما يطلقون عليه هنا في دمياط الجديدة في سبع دقائق، صعدت حنان ونهال تحملان أكياسًا خطت في أيديهما خطوطًا حمراء من ثِقلها، وبمجرّد أن دخلت نهال من باب الشقة؛ قذفت بحذائها إلى آخر الصالة، وألقت بنفسها على الفوتيه.

جاء صوت الجدة غاضبًا:

– حمدًا لله على سلامتكما، كأنّما تشتريان السوق كله! ما هذه الغيبة؟! أكلني الجوع.

وبصوت مرهق، قالت حنان:

– حالًا يا ماما. أريح قدميّ خمس دقائق، وسآتي بعشائكِ فورًا.

رفعت قدميها على منضدة الأنتريه لدقائق تدلكهما وتتأوه، ثم قامت إلى الثلاجة فأخرجت الجبن والزبادي، ووضعت البيضة المسلوقة تحت

حنفية الماء سريعًا لتستطيع تقشيرها، وجلست بجانبها على السرير، سألتها أمها: هل وفّقتِ اليوم في شراء ملابسك وباقي مستلزمات شقتك الجديدة؟

– ياه يا ماما!! دخلتُ ما يقرب من عشرين محلًّا ما بين ملابس وفضيات وأدوات منزلية حتى أكملت أخيرًا ما عزمت على شرائه، سأُريكِ ما جئتُ به ما إن تنتهي من طعامك.

قطع حوارهما صوت نهال آتيًا من الصالة:

– أمّا أنا يا جدّتي، فقد اشتريت طقمًا لم يسبق أن لبسته فتاةٌ قبلي. تُحفة.. تُحفة. سأكون نجمة فرح ماما.

وضحكت ضحكة عالية، قالت حنان بحزم: نهال.. هِيه!

– لن يمر الموقف هكذا على الجدّة دون أن تدلي بدلوها.

– لا عليك يا نهال. تتزوج أمّك أوّلًا، ثم يأتيك الدّور. لا تقلقي.

نظرت لها حنان، وكأنّها تقول: "ألن تكفي عنّي أبدًا"؟! وحملت الأكياس وخرجت لتجلس في غرفتها؛ تستعرض قِطعَ الملابس، تضعها على أكتافها، تدور بها أمام المرآة، تتأمل الألوان والتصاميم، التايير السيمون، ما أروع تصميمه! وهذا القميص الأسود بفصوصه البرّاقة وأكتافه العارية!! لم أرد أن أخالف رغبة أحمد، اشتريتُ معظم ملابس

obeikandl.com

النّوم من اللّون الأسود كما يحب. ارتمت على سريرها محتضنة القميص، أمسكت تليفونها أعادت سماع كلماته لها، وهي تبتسم "حبيبة عمري، يا بلسمي ونسمتي. حجزت وسأعود الأسبوع القادم، أعدِّي كلَّ شيءٍ حتى لا تتسرب الأجازة منّا في تجهيز بيتنا الجديد".

– كل ما أوصيتني به قمتُ بتنفيذه بدقّة، وحُمل إلى بيتنا الجديد، ونُظِّم كما أردت، لم يتبقّ إلا الشمعدان النحاسي الذي ستضيئه يداك حتى تكتمل طقوس حلمك القديم، سأذهب لأشتريه غدًا من أشهر محل فضيات، غلبها النعاس من إرهاق اللّف على المحلات.

لم تشعر إلا بطرق نهال، وهي تقول:

– تأخرتُ يا ماما عن المدرسة، جهزي لي السندوتشات.

قامت مسرعة إلى المطبخ أعدت سندوتشات الجبن الرومي لها، والمربى لمحمد أخيها، وبلمسات سريعة أصلحت لها الحجاب، وأخرجت ياقة قميص محمد فوق كنزته، وأغلقت الباب خلفهما، واستدارت إلى الشّرفة؛ لتتابعهما كما تعودت كلّ صباح وهما يعبران الشارع. وقفت تتأملهما بسعادة وتتعجب كيف مرّت السنوات الخمس بعد وفاة سعيد؟! ها هي نهال في الصف الثاني الإعدادي، ومحمد سينُهي الإعدادية هذا العام.

استدارت ككلّ يوم تعد فطور والدتها وتجهز وجبة الغداء؛ لتنطلق إلى الحضانة التي افتتحتها بعد وفاةِ زوجها، جاءها صوت نغمة الرسالة، أسرعت إلى التليفون متمنية أن تكون رسالته، وبفرحة ظافرة ويدٍ ملهوفة فتحتها "حبيبة عمري ادعِي لي. أنا في كرب وضيق شديد" ألقت بنفسها على كرسيّ بجانب الثلّاجة، ورفعت حاجبيها في استنكار مذعور:

- كرب! أي كرب؟ لمَ لم تفسر؟ كلمتان لو أضفتهما لهذه العبارة كانتا ستخرجنّي من هذا الضباب الذي أنا فيه الآن.

طلبته لم يرد. أعادت الرقم مرات عدةٍ ولا إجابة، عادت لتكمل ما بدأته في المطبخ فلم تستطع. وضعت رأسها بين كفيها وانهمرت في البكاء، تهدّج جسدها من شدة ارتجافه. ارتعشت شفتاها وهي تحدث نفسها: جعلت القلق في قلبي كأنّه النمل!! وجاء صوت أمها قاطعًا عليها بكاءها: حنان، الإفطار.

مسحت دموعها واجتهدت؛ لتعيد لصوتها طبيعته:

- حاضر يا ماما سأكون أمامكِ حالًا.

أعدت حقنة الأنسولين، حملت الصينية وقدمتها، فقالت أمها وكأنّها تعتذر:

- أعرف أننا نثقل عليك يا ابنتي، تعرفين ظروف أختيك. لا أدري ماذا سأفعل بعد أن تنتقلي للعيش مع أحمد؟

obeikandl.com

- وهل سأتركك وحدك؟! ستأتين معنا.

بنظرة لا تخلو من حكمة: لا يا حنان، يكفيه أن يقبل بأولادك معه، أما أنا فكثير واللهِ.

هزّت رأسها بأسف وقامت حيث دوامة كل يوم في متابعة المعلمات والمربيات والتغذية وسيارات نقل الأطفال وشكاوى أولياء الأمور الدائمة، فكلّ منهم يظن أنّه يجب أن تتفرغ لابنه وفقط، انتهى اليوم الدراسيّ وعادت لهؤلاء الذين في رقبتها، تستشعر رقّة بالغة تجاههم، قرعت قلبها مطرقةُ الخوف، حدثت نفسها: " لكن هذا الغياب لِمَ؟! أخشى أن يكون حدث له مكروه. فلأول مرة أتصل ولا يرد، حتى لو كان مشغولًا كان يعاود ويطلبني مرة أخرى. يا ربّ لا تطل عليَّ هذا القلق، أكاد أُجنّ. ضاق صدرها عن نهال هذه المرة وهي تسمع لها ملخص يوم دراسي كامل بمغامراته ومناقشاته وقفشاته، فنهرتها قائلة:

- ممكن يا نهال إذا سمحتِ نجلس إلى الطعام دون إزعاج؟

نهال بضحكة الورد: يا ماما.. أتعجل الطريق لأحكي لكِ عن الأشياء التي أضحكتني وأبكتني وحيرتني.

تتراجع عن قسوتها، فتضمها لصدرها، وتقول:

- أنا التي دائمًا أسألك عن مدرستك وزملائك وأسعد بحكْيِك ومُلحِك العذبة. لكن تيتا تؤخر نفسها من الغداء لتأكل معنا، فهي الوجبة الوحيدة التي تجمعنا، هيا أيقظيها لنأكل.

آبت إلى نفسها، وآب إليها قلقها وجاءها صوته حزينًا مخنوقًا:

– كنتُ أمام وكيل النيابة اليوم يحقق معي، رأيت اتصالاتك لكني لم أستطع الرّد.

بحلق جاف: وكيل النيابة، لماذا؟!

– أتذكرين ذلك الرجل الذي خيّرني بين نجاح ابنه أو تدمير مستقبلي؟

باضطراب: نعم أذكر. ماذا فعل؟

– نفّذ تهديده، ودسّ لي مخدرات في سيارتي وأبلغ عني، أوقفوني وقاموا بتفتيش سيارتي، وصرت متلبسًا بحيازة مخدرات بغرض الاتجار.

بصوت ملسوع باكٍ: تلبس!. يا قلباه!

– كاد قلبي اليوم أن يتوقف وأنا أمام وكيل النيابة من شدة الظلم الذي وقع عليّ.

– وأين أنت الآن يا حبّة القلب؟

– أكلمك قبل أن أرحّل للسجن، فقد استأذنتُ من وكيل النيابة حتى أخبرك بنفسي.

بنظرة مذهولة وصوت دهش، قالت: كان داخلي شعور أنّ فرحتنا لن تكتمل، وأنّ هناك من يستكثرها علينا.

بحزن يقطر من كلماته: أشدّ ما يؤلمني مرارة الظلم. وسمعتي التي حافظت عليها عمري كله تلوكها الألسن الآن، مما جعل ضغطي في ارتفاع مستمر.

obeikandl.com

انقبض وجهها بالألم:

– إلَّا الضغط يا أحمد حاذر منه. تجلّد لعلّ فرجَ الله قريب، فلن يتخلى عنك ربك.

بصوت متعجل قال: أستأذنكِ حبيبة عمري. مختنق ولا أستطيع الكلام، ورأسي يكاد ينفجر، سلام حبيبتي، سلام.

– في سلامٍ حبيبي، وأمن وأمان.

ثبّتتْ عينيها على التليفون، ورأسها هناك في ذلك البلد الخليجي الذي جمع أحمد بسعيد. كلاهما مدرسان للّغة العربيّة، جمعتهما صداقة متينة ظلت حتى آخر نفَس في حياة سعيد. جاءت طرقات الباب بمثابة رعدة أخرجتها من فرط استغراقها.

– مَنْ؟

– أنا يا حنان.

– نعم يا ماما.

فتحت الباب وهي تقول: لماذا تغلقين على نفسك هكذا؟! ولم تتمكن من مسح دموعها.

الأم مشدوهة: دموع، وقد اقتربتِ من تحقيق ما ناضلتِ من أجله؟!، هل أغضبكِ أحمد؟ سمعت نغمة تليفونه من هنيهة.

obeikandi.com

تهُمّ حنان بالكلام، ولكن الأم تصرّ على إكمال تساؤلاتها: قلت لكِ أولادك أولى بحضنك.

ولم تستطع حنان صبرًا، فانطلقت كأنّها بركان يخرج حِمَمَه:

– قلتِ لي، وقلتِ لي!! واتهمته أنّه كان صديق زوجي اللصيق، وأنّه كان يصاحبه طمعًا فيّ، وأني كنت أحبه، وزوجي معي، وحاربتِني وبناتك حربًا مريرة كي لا أتزوجه، وكانت حجتكم المعلنة (سيقول النّاس أنّكما تحابتما أثناء مرض زوجك، فقد كان لا يفارقه أبدًا).

بوجه أصابته الدهشة: كنت أخشى على سمعتك وسمعة أولادك.

هزت حنان رأسها بنفي قاطع: ليست هذه الحقيقة يا أمي، الحقيقة أنكِ وأسماء وسمية لا تُرِدن لحنان أن تترك بيت العائلة وتنفرد بحياة أخرى، فما أنا إلا عامود أو حائط يقيم هذا البيت ويرتكن عليه.

خفضت الأم رأسها لتهرب بعينيها، بينما استمرت حنان في ثورتها الهادرة: من يقابل القادم؟ ومن يعد الولائم؟ ومن يصنع المربّات والمخلّلات، ويخزّن الجبن للعام كله؟ ومن– وهو الأهم– يحمل عنهما مسئولية رعاية أمهما حتى يناما في بيوتهما بطمأنينة؟

برهبة المذهول.. أنّ كل ما وارته ولم تصرح به قد وصلها وأطلقته في وجهها فجأة: أتظنين أنّي لا أنشد سعادتك؟ لكن أولادك...

obeikandl.com

بضجر: أولادي!، أولادي.. كانوا ما زالوا أطفالًا، وكانوا شديدي التعلّق بأحمد حتى همستم في آذانهم، أسألك يا أمي سؤالًا لا موارية فيه، متى عشت حياتي؟ متى كان لي منزل زوجية خاص بي؟ صممتِ أن أظلّ هنا معكِ ولا أذهب لشقتي مع زوجي بحجة أن سعيد ابن أخيكِ ولا حرج في وجوده معكم في منزل العائلة. خمس سنوات في غربة، بعدها خمس سنوات مريض قضيناها هنا!!

بصوت منكسر: هذا قدرك يا ابنتي، لا حيلة لنا في المرض، ولا في الموت، أين صبرك؟

بحدّة قالت: كنت في صبري كالجمال حتى توفاه الله.

وهي تربت على كتفها، وتهمس بصوت هادئ: نعم حبيبتي، وقد وافقنا على زواجكما وانتهيتِ من شراء لوازم منزلكما الجديد، لِمَ بكاؤك وثورتكِ هذه؟!

– بكائي وثورتي لخمسة عشر عامًا من عمري لم أعرف فيها السعادة، لم يكن سعيد رغبتي، فقد فرضتِه عليَّ وتحمّلتُ، خصمت هذه السنوات من عمري لكنها أضافت التجاعيدَ في وجهي وقلبي لن تمُحى، خمس سنوات أناضل لأتزوج بمن أحبني حدّ العشق، وأحببته حدّ الوجع، أبكي لأني بعد أن دنا مني كأس السعادة ومددت له يدي لأرتشف جاء من أطاح به فسقط على الأرض محطمًا.

obeikandl.com

وخبطت يدها على صدرها، وقالت: كفى الله الشر. من الذي حطّم كأس سعادتكِ يا ابنتي؟!

قالت وقد علا صوتها بالنحيب: أحمد لُفِّقَت له قضية يصعب أن يخرج منها، تحطّم ماضيه وحاضره ومستقبله، دُسّت له مخدّرات في سيارته.

أخذت رأسها في صدرها، وقالت بحنو رقيق: لا حول ولا قوة إلا بالله! لن يطول البلاء سيظهر الحق حتمًا. ويدها تمسح شعرها، قالت: أعلم أن قسوة الظروف جعلتني أنسى أنك مازلتِ صبية غضّة تحتاجين نفس عنايتهم فحملتك معي المسئولية.

انسلّت حنان من حضن أمها، وقالت: لا عليك يا أمي. كل ما أرجوه أن تدعي لأحمد بالنّجاة، وأن ترضي عنه وعنّي.

– لن أترك الدعاء له في صحوي، ولا في منامي.

وفى صباح اليوم التالي اتصل بها المحامي ليطلعها على موقفه القانوني الذي أذهلها:" الإعدام أو السجن عشرين عامًا". كان هذا كافيًا لترقد في الفراش أسبوعًا تغفو ساعة، وتأرق ساعة حتى بدا الزمن ثقيل الوطأة يجر نفسه جرًّا. وتحولت المكالمات التي كانت ترتب لزواجها المرتقب إلى متابعة ترتيبات الجلسات من خلال اتصالها بمحاميه هناك.

ومرّ عام والحال هكذا، أحيانًا كانت تهرب من مرارة الواقع فتلوذ بذكرياتها معه، وبالتحديد تلك الشهور التي أعقبت موافقة أمها وأختيها على ارتباطها به، تتذكر حنانه الذي غمرها به، مشاعر أحستها لأول مرة، كان كلامه يلون قمة صِباها، ويتغلغل في أنفاس جوارحها، عادت معه فتاة صغيرة يرتعش قلبها إذا سمعت رنة تليفون حبيبها أو دبيب أقدامه على السلّم، ويدق قلبها لطرقته المميزة على الباب تكاد تنفجر وجنتاها دمًا كلما بثها عشقه بكلمات لم يطرقها أحد قبله، كم استنطقتني يا أحمد قبل ارتباطي بك أن أقولها لك ولو لمرة واحدة: "قولي أحبُّكَ ولو مرة واحدة. امتلكي قلبي بها للأبد"! فلم أستطع، حتى صارت علاقتنا حلالًا، أصبحت أهذي بها في صحوي ومنامي. ولكن أين أنت لتسمعها؟ كم كنتُ أضحك كلما قلت لي هذه صورتك معي أحتضنها في نومي، وأحفظها بين قلبي وشغافه. فتلومني على ضحكي وتغضب وتقول: لا تضحكي؛ فالمشاعر مقدسة، أفعل هذا من فرط عشقي لكِ، وهل مثلك يُنسى؟! لا أحتملُ فكرة حرماني منك. لعله كابوس يجثم على صدري جثوم الليل، وسينبلج منه الصباح.

المحنة لم تزد أختيها إلا عنادًا وتصلبًا. تتسرب لها كلمات شماتة فيه توجعها منهما، لكن الموقف لا يحتمل معاتبة، لكن محمد وإن ظلّ

في نفسه شيء، لكن فكرة أنّ عمه أحمد مظلوم، وبعد أن عرف من جدته كيف قضى عمه أحمد إسماعيل إجازته كلها بجانب والده ما بين عيادات الأطباء والمستشفيات حتى جاءت النهاية جعلته يهدأ شيئًا ما من ناحيته.

مر هذا العام بقسوته. وأرخى ظلاله الكئيبة عليها حتى أشرقت الشمس ذات صباح مع مكالمة من محاميه بصوت ينفح بِشرًا وسعادة:

– أستاذة حنان، ظهر تطور في القضية ربما يقلبها كلّها لصالح الأستاذ أحمد.

– ما هو التطور؟ أسعِدني؟

– فقد أثبتنا أنّ الحقيبة التي وضعت فيها المخدرات اشتراها ذلك الرجل الذي هدد أحمد أمام جمع من المعلمين في مول شهير هنا.

– باستعجال: كيف أثبتم ذلك؟

– بثقة قال: وجدنا الكود الذي على الحقيبة مثبت في حركة البيع في تاريخ شرائها في اليوم الذي يسبق القبض على أحمد بالتلبس.

– باهتمام وتشوُّف قالت: سيبرّأ أحمد؟ هل علم بهذا؟

– بتأكيد قال: نعم علم، وهو في انتظار الجلسة التي سنقدم فيها هذه الأدلة للقاضي، ونأمل أن تكون البراءة.

وخرج صوت الفرحة هاتفًا (أشكرك يا ربي على عدلك)، وأشكرك أيها المحامي الهمام، لا أجد كلامًا يوفيك حقّك.

تدفق النور إلى داخلها، وهفا الهواء حولها، ولمعت عيناها، وعلا شفتيها نور ابتسامة طالما اختفت، وعرفت سكرة الحلم:" سيخرج أحمد مرفوع الرأس، أوشك اليأس أن يتملكني، لكن" لا كرب وأنت رب".. وجرت على حجرة أمها وأحاطتها بذراعيها قائلة: تقبل الله دعاءك يا أمي، وظهرت براءة أحمد.

خرجت نهال من غرفتها على الأصوات المختلطة بالفرحة والبكاء وبصوت خفيض عذب؛ قالت: معذرة حبيبتي، معذرة أمي غصب عنى والله كآبتي طوال العام الماضي. فالأمر لم يكن هينًا أبدًا، ردَّت الأم: ولا هينًا عندي أيضًا.

– قالت حنان: ما آلمني أشد الألم في قضية أحمد، أمران: كونه الرجل الذي اختارني دون غيري من النساء، وصبر لخمس سنوات على ظروفي غير المواتية، ورفض جميع عروض الزواج التي عرضت عليه وهو الأرمل الميسور، والأمر الآخر، أنه مظلوم وغريب ووحيد ومسجون، أتذكر ذلك فتطير كل عصافير السكون من حولي، قالت أمها: الحمد لله. فقد قارب الابتلاء على نهايته، وستنتهي المعاناة ويأتيك الهناء، وستنسين ما كان.

obeikandl.com

وجاءت ليلة جلسة النطق بالحكم، وكان الوقت كأنه الدبوس المسنون. وفي الصباح لم تستطع الذهاب للحضانة. وهي تنتظر أن تبلغ بالحكم تيلفونيًّا، طار خيالها إلى جلستها معه على الكنبة المقابلة بعد التصريح الغالي الصادر من الباب العالي بالموافقة على ارتباطهما، كيف كانت نظرته التي أودعها كل ما كان في قلبه من شوق، وصوته الهادئ وهو يناديها حنان.. لسان واحد هو من أعطى لاسمي نغمة لم أسمعها من قبل، وبآذان مرهفة منفتحة سمعت ما تمناه: هلا تعرفين يا حناني يا أمنيتي الدفينة؟ سألته عيناي ولم ينطق لساني.

أمنيتي أن أجلس أنا وأنت في بيتنا هناك على عشاء في ضوء الشموع، وأحكي لك عن عمري الذي مرّ ولم تكوني فيه، وعن السنوات الخمس القاسية، وأملي فيك يراودني. يبرق حينًا، ويخبو أحيانًا. وكم تمنيت أن ينطلق لساني وأحكي لعينيك الواسعتين العسليتين كم أطلا عليّ في وحدتي. وكم تراءى لي وجهك هذا القمحي المستدير فآنس غربتي. وكم كنت أناديه بهمس خفي كي يطوي البعد ويطوي الزمن، ويطوي العند ويجمعني بكِ في عشاء الشمعدان. وجاء صوت الهاتف قاطعًا سحر الذكريات، تهدجت أنفاسها وجاء صوته متهللًا: أبشري مدام حنان، قَبِل القاضي المذكرة التي قدمناها وحكم بالبراءة.

سالت الدموع اللؤلؤيّة، وأنارت الابتسامة عينيها العسليتين، وتقطّعت الحروف على لسانها: براءة يا أحمد، ب ر ا ء ة!! كانت حلمًا أستاذ ماهر، جعلها الله حقيقة على يديك، أخبرني عن أحمد كيف هو، وكيف استقبل الخبر؟ بصوت متردد قليلًا: بخير سيدتي كان صابرًا غاية الصبر، وما إن سمع صوت القاضي معلنًا البراءة حتى خرّ ساجدًا شاكرًا لله.

- خير يا حنان. براءة يا ابنتي؟

التفتت حنان عن التليفون وقالت: براءة. براءة يا حبيبتي.

- الحمد لله... ألم أقل لكِ إنّ الظلم لا يدوم؟

وقبل أن تنهي المكالمة حملت الأستاذ ماهر هذه الأمانة، أبلغ أحمد سلامي وتهنئتي وأنّي أنتظر عودته سريعًا.

- يصل سيدتي. سننهي إجراءات الإفراج وسيعود.

- عاد لكل شيء مذاقه البيت، الهواء.. الماء.. الطعام، زالت رتابة الحياة. كلّ شيء أصبح ساحرًا رائعًا.

- وجاءها صوته الشجيّ الهادئ: حنان، يا حبيبة العمر، آسف جدًّا لعام الحزن الذي مر بك، أعلمني المحامي بكل ما عانيته من أجلي. وقد اكتسى صوته نبرة حزينة وهو يقول: عندي الكثير الذي أخبئه لكِ ستعرفينه حال عودتي الأسبوع القادم إن شاء الله.

obeikandl.com

لم تصدق أنّها تسمع صوته، وجعلت تردد مع نفسها: كم أوحشني صوتك!! وكم حلمت بتلك اللحظة حتى ظننتها لن تأتي أبدًا!! تكلّم حبيبي أكثر تكلّم لن أقاطعك. فهذا ترف لا أقدر عليه، كيف أقطع على نفسي سعادتها بك؟ أنا التي كلما تذكرت صوتك ذبت وجدًا إليك. ولما أحسّت أنّه اقترب من إنهاء المكالمة.. قالت بضحكتها المنغمة: هل من الممكن الأسبوع القادم يكون غدًا؟ ردَّ عليها: حبيبتي، أريد رؤيتك السّاعة، لا غدًا.. لكنّها الإجراءات. وعلى الفور ذهبت إلى فيلته التي ترك لها مفتاحها لتزيل عنها التراب، وهي التي لم يطاوعها قلبها على فتحها وهو في محنته، مرّت على حجراتها الأربع، تذكرت حينما أخذها من يدها ومر بها يقسم غرفها واحدة لهما، وواحدة للأولاد، والثّالثة لوالدتها والرابعة للمعيشة، أمّا هذا الاستقبال الكبير فهو لتجمع العائلة في عشاء الخميس، مرّت يدها على الصالون المذهب ذي الفرش الورديّ والسجّاد الصوف الخالص بنفس لون الصالون، فهو لون أحمد المفضل، ولم تنس تعليماته بأن تكون السفرة كبيرة جدًّا لتجمع العائلة كلّها، ومن وقت لآخر تأتيها نهال قائلة: يا ماما فيلا جميلة جدًّا، وخاصةً تلك الشّرفة المطلّة على البحر. هل سنأخذ جدتي معنا تضحك عيناها العسليتان، وتقول: أنا وعمك أحمد نتمنى،

ولكنها ترفض قائلة: سأدعكِ تهنئين بحياتك الجديدة، وبعد أن أعادت لكلّ شيء بريقه ألقت نظرة شاملة على المكان. أحست بالرضا، قالت لنفسها: (لم يبق إلا الشمعدان النحاسي، سأذهب غدًا لأشتريه من أشهر محل فضيات هنا). أتت به كما أرادت، وفي منتصف السفرة وضعته، ولم تنس شمعاته الوردية كما تمنى. اطمأنت على بهائه، أغلقت وعادت، لم يعد بينها وبين لقاء أحمد إلا سواد هذه الليلة، وفي الصباح أعدّت كلّ الأصناف التي يهواها: محشي ورق العنب، والبط الروستو، والبوفتيك المحمر، وأكثرت القشطة فوق صينية البسبوسة كما يحب، اطمأنت أنّ كل شيء على ما يرام، قالت لنفسها: لم يبق إلا أنا. ذهبت لخزانة ملابسها وأخرجت الفستان الوردي الجديد. لبسته، وقفت أمام المرآة تستدير وتلف بظهرها، أبدو فيه شابة جدًّا. فاجأتها نهال منتصبة أمامها، ابتسمت وقالت: من يراك الآن سيظنك أختي ولستِ أمي!!

- بسعادة قالت: حقًّا يا نهلة. شكلي أصغر؟ ومن قال إنك لستِ أختي؟ أنت أختي، وابنتي، وحبيبتي، وهوت على خدها بقبلة.

- أراكِ يا حنون هذا الأسبوع وقد صغُرتِ عشر سنوات.

أغمضت عينيها وقالت بضحكة ماكرة: هيَّا اخرجي لأكمل لبسي. وأخذ وضع الطرحة على رأسها وقتًا ليس بالهين، ما أروع كحلها البني

الذي رسمت به حواجبها، وحددت به عينيها العسليتين، وأضاءت شفتيها بلمسة من الروج الهادئ. خرجت تتوارى حياءً، أرادت أن تبعد محمدًا عن هذه المقابلة. فذكرته بموعد درسه، لكنه تعلّل أنّه رجل البيت الآن، وعليه أن يكون في استقبال الزائر، شعرت أنّه يريد إلجام مشاعرهما فلا يتماديان في إظهارها، دقّ الباب، ودق قلبها معه، دخل أحمد بقامته المديدة وأكتافه العريضة، وقد فقد الكثير من وزنه يتأبط ذراع ابن أخته يرتدي نظارة سوداء، مدّ محمد يده ليسلّم عليه، لكن يد أحمد ظلت بجانبه، استحى محمد، وأنزل يده، اقتربت منه أكثر لم يرفع وجهه ليراها، لم ينتبه لها إلا بعد أن سمع صوتها تقول: حمدًا لله على سلامتك مرتين، مرّة لبراءتك، ومرّة لعودتك.

بوجه ثابت لا يتحرك تجاه الصوت: وسلامتك يا حنان.

استأذن الجميع بعد السّلام، وتركاهما وحدهما. وبنظرة خابية منطفئة قالت: ما لعينيك حبيبي؟! ألا تراني؟! لم تمد يدك لتسلم عليّ!!

ابتسم في رثاء، وقال: لم أرد أن يخبرك أحد بما حدث فأردت أن أكون أنا الذي يسمع قرارك دون تأثير من أحد، تذكرين عندما قلت لكِ: ضغطي عالٍ، ولم يستطع الأطباء السيطرة عليه، وظللت بين السجن والمستشفى؟ كان من أثره أن ارتفع ضغط العين وكان ما كان.

مبدية تعاطفها معه، ويدها تربت على يده، وهو يكمل: تعلمين أنّك ساكنة في فؤادي منذ أن رأيتك أول مرة، ولم أشعرك بما في قلبي حتى لا أؤذيك بمشاعري، واحترمت حزنك، وترملك، وصمدت عامًا كاملًا حتى سمعت أنّ هناك من فكر في الزواج منك. ساعتها لم أتردد في عرض الزواج عليك وكان ما تعرفين.

هزّت رأسها: لا أعرفه فقط، بل عانيته وتجرعته.

والآن أخيرك بين الاستمرار فيما بدأناه، أو تصدقين مع نفسك، ولا تربطي مصيرك بمصير إنسان لن يستطيع أن يعوضك عن سنوات طويلة من الحرمان.

انهمرت في البكاء. وفي لحظة صمت طالت وامتدت، وبارتجافة سرت في شفتيها قالت: أحمد، لو لم تكن ظهرت في حياتي، ولو لم تكن تحمل لي كلّ هذا الحبّ الذي ظهر لي؛ لاحتفظت بلقب أرملة مدى الحياة. لكن لأنّك أنت، وأنت فقط من غزا حياتي، وكان كعاصفة حركت كلّ الأشرعة، جعلتني أقف صامدة خمس سنوات أمام رياح الرّفض العاتية لأكون معك في النهاية، ثم تأتي بعد ذلك وتقول أخيّرك؟! صدقي مع نفسي هو صدقي في اختياري لك زوجًا أكمل معه رحلة حياتي. ومدّت يدها وخلعت نظارته السوداء، لا تخفي عينيك، أريد أن أرى هاتين العينين الطيبتين اللتين طالما أسعدتني نظرتهما الحنونة.

ابتسم وعاد إلى صوته طبيعته، وقال: هذا قرار مصيري. أواثقةٌ أنتِ من اختيارك؟! وهي تلمس يده: واثقة من سعادتي معك، ومنك، وبك. رفع يده يتلمس وجهها وهو يقول: اعذريني حبيبتي، حين اقترب موعد أمنيتي الدفينة نقصت حواسّي.

– لا عليكَ. أنا حاستك الناقصة، لقد اشتريت أجمل وأبهى شمعدان ووضعته كما أردت، هزّ رأسه قائلًا: وهل سأراه؟! قالت وهي تمسك يديه: تراه بعيني.

obeikandl.com

كيس تراب

وبعد أن التقت صورتانا، وتحدثنا لبعضينا.

لا، لا. بل تغازلنا بكل أشعار الغزل ونثره، أبدعنا في البوح: همسنا.. تكلمنا.. بكينا.

عام ونصف نضجت فيه قضيتنا بنار المحنة.

لم يعد بيني وبين أن أرى إيادًا حقيقة إلا ذلك السير الذي يحمل الحقائب، ويسير بتمطّع وتثاؤب.

أسرِعْ أيها الكسول؛ حتى ألتقط حقائبي وأخرج لتدهشني فرحة لقائه.

ضحك مني ساخرًا حينما سألته: هل ستعرفني حين تراني؟!

يا طفلتي نقشت صورتك في قلبي. ملامحك.. تقاسيمك.. نظرة عينيك امتلأت بها عيناي.

التقطت الحقائب، دفعتها أمامها، خرجت.. مسحت بعينيها المكان. وفجأة تمثل أمامها.. يحرك يده أمام عينيها قائلًا: أنا هو. لماذا تذهب عيناك بعيدًا، وأنا هنا تحت ناظريك؟!

بارتجافة شفتيها سألته، وهي به عليمة: أأنت إياد؟ متأكد أنك إياد؟

obeikandl.com

ضحك وقال: أنت حبيبة؟ متأكدة أنك حبيبة؟

أمسك عنها بحامل الحقائب، وهو يقول: أخيرًا رأيتك حقيقة أيتها الثائرة السمراء ذات العينين الخضراوين.

بنزق جنوني جميل!! قالت: - حبيبة لا تدري هل هي طائرة؟! هل تلمس قدماها الأرض؟!

لا لا، بل سابحة في مياه عذبة حلوة!

ضغط على يدها قائلًا: أنت هنا معي؟!

بإصرارنا تحول الحلم إلى حقيقة، وها هي السيارة التي ستحملنا للفندق. هيا اركبي.

أخيرًا جلست حبيبة بجوار إياد! صدق نفسك يا ولد- خبطت على يده، وقالت: يا لها من رحلة مضنية أليمة! وتنهدت طويلًا، تناثرت الكلمات كوريقات الورود.

نورت الدنيا. بل أنت الدنيا، جاء لقائي بك أجمل مما تخيلته.

وجئت أنت أروع من أحلامي.

ها قد اقتربنا من الفندق، سأنتظرك في البهو حتى تضعي حقائبك، وتبدلي ملابسك، ثم نذهب لتناول الغذاء معًا، ونتفق على برنامج غداء.

دخلت غرفتها، أجالت نظرها فيها، رضيت عنها أمام المرآة، ضبطت طرحتها أعادت رسم عينيها، اختارت النظرة التي ستغمسها في عينيه.

obeikandl.com

أحكمت غلق الهدية التي أتت بها إليه، حملتها ونزلت، تأبط ذراعها، وشت عيناه بما في قلبه، سحبت ذراعها بهدوء وهي تعتذر: وددت لو تركته في حضن ذراعك، لكن لا أقوى على رفعه بعد أن كسروه. آسف حبيبتي، فرحتي أنستني. أنزلته بحذر.

أشار بيده وقال: المطعم ليس بعيدًا، إنه في آخر الشارع، مميز في خدمته وأصنافه، وهذه المرّة سيكون للطعام مذاق مختلف؛ لأنه معك!

اتخذا مقعدين متقابلين بجوار النافذة التي تطل على حديقة رائعة.

لاحظت أنه يقلب عينيه في كل مكان، ويتحاشى النظر إليها، لم تستطع السكوت؛ فعلاقتهما الممتدة والتي لم يقف فيها الحوار يومًا واحدًا أزالت هيبة أول لقاء، فباغتته بالسؤال: لم تهرب بعينيك مني؟!

بابتسامة وحسن خطاب قال: هي أضعف من أن تواجه عينيك الخضراوين، وروحك المشعة التي حبستها الصورة، لكنها تنتشر حولي الآن.

تضحك: لكنك ممتلئ بعض الشيء عن الصورة.

- الحقيقة أحبطتك؟!

- الحقيقة أسعدتني. قدّم النادل قائمة الطعام لهما، تصفحاها، وقبل أن تحدد ما تريد قال لها إياد: هل ترضين عن اختياري لك؟

هزت رأسها مبتسمة، وجّه كلامه للنادل: أورفة كباب، وميدي دولما

محار، على نصف صدفة مخلوطة بالأرز.

بنظرة قلقة: إياد هل أنت متأكد من موافقة مدير القناة على انضمامي لها؟

- نعم حبيبتي، انتهينا من هذا الأمر في القناة، فقد اطلعوا على سيرتك الذاتية، ولم يبق إلا ذهابك للقناة للمقابلة الشخصية، وإنهاء الإجراءات، عملك بالصحافة من قبل عزز قبولك.

- لا أستطيع أن أصف لك حال أمي وإخوتي وأنا أودعه، ظلت عبارة أمي ترن بمسمعي طوال الطريق:" ربما أموت ولا أراك، فقد اخترت منفاك" احتضنت أخوتي كأني لن أراهم ثانية.

ربت على يدها وهو يتمتم... لعل الفرج قريب إن شاء الله!

بنظرة ساهمة: أكيد زواجي منك جاء بي إلى هنا، لكن هناك أسباب لها من الأهمية ما جعل هذا النفي يهون.

بضحكة مختزلة: ما هي الأسباب المهمة سواي؟!

أسعدتها غيرته، وبمرحها ذي الجاذبية قالت: لا لن أقول، سأتركك هكذا حائرًا.

- وأنا لن أتركك حتى تقولي. هيه قولي، هل نسيت قضيتنا العادلة وآلاف الأبرياء خلف القضبان؟! نذرت أن أكون صوتهم في الخارج أنقل واقعهم المزري في سجون استكثرت عليهم حتى حقوق الحيوان!!

obeikandl.com

وسأدعمك بما أملك من خبرة، فقد سبقتك في التصدي لهذه المهمة.

ابتسمت راضية وقالت: ألا تريد أن ترى هديتك؟ والتي حيرتني في اختيارها حتى اهتديت أخيرًا لها؟

بشغف تلقاها من يدها، فك الشرائط الحمراء، وأزال الورق المفضض، وفتح العلبة القطيفة، اندهش، سألها: ما هذا؟ هدية عجيبة جدًّا!

- كيس من تراب أرض المذبحة، ومصحف محترق، وجدت نصفه وأنا أغادر المسجد ساعة احتراقه، تشبثت به وأنا أهرول حافية بعدما غادرت الحياة كل شبر في أرض السجود والصمود. أغلى ما أملك أقدمها لأغلى من عرفت، وأدرى أنك مثلي تعرف قيمة هذه الأشياء.

أمسك بالمصحف وكيس التراب وضمهما لصدره ولمعت عيناه وهو يتأملهما: عشتها لحظة بلحظة، فقد كنت مسئولًا عن تغطية فعاليات هذا الاعتصام الذي يعد أطول وأضخم اعتصام في العالم وخرجنا مثلما خرجت. حفاة متسللين لا شيء معنا يقينا من الرصاص. سقط حولي الكثير، ورأيت الناس وهي تُحرق أحياءً، ودفعت الكثير كي أعبر الحدود، فبقدر ظلمهم وبقدر فسادهم فكل شيء لديهم للبيع.. أختام، تصاريح، تغافل، ولذلك هديتك أعرف قدرها وأثمنها غاليًا.

وقف النادل يرص الأطباق. أرجعا ظهريهما للمقعد، حاولا أن يخرجا من الحالة التي تلبستهما، فقالت حبيبة: آسفة إياد أن صبغت لقاءنا الأول بهذه الأحزان، قدَرُنا نحن من عايش تلك الثورة المغدورة أن تكون أفراحنا دائمًا مخلوطة بالأسى والشجن!!

- هيا حبيبتي نأكل أول لقمة لنا معًا.

وهما يتبادلان اللقيمات قالت: لست وحدك من وقعت في غرامه!

- ومن أيضًا؟

بضحكتها المعهودة: طبق المحار هذا.

وعدها أن يأتي بها في نهاية كل أسبوع، استعرض معها فقرات يوم الجمعة، موعد عقد الزواج ورتب موعد ذهابها للقناة وأمدها ببعض النصائح التي تفيدها في التعامل مع الكاميرا، أوصلها للفندق، ألقت بنفسها على الفراش. لم تدر إلا والشمس تشاغبها من النافذة، أسرعت لصلاة الصبح جاء صوته متعجلًا لها في التليفون، نظرت لصورته: هكذا أنت دائمًا حتى حبي لك جاء على عجل.

في مكتبه الواسع وقد لبست جميع حوائطه الثوب الأبيض، واحتلت النباتات الخضراء زواياه يتوسطه مكتب فخم مكفت بالصدف والنحاس وضعت عليه باقة ياسمين رائعة، استقبلهما باشًّا محييًّا، أهلًا أهلًا بمن شغلت قضيتها ورفيقاتها الميديا.

obeikandl.com

سلما عليه فأشار لهما بالجلوس، ضحكت بتطلف وقالت: أشكر قناتكم؛ فهي التي نقلت قضيتنا للعالم، وكان لصورتنا داخل القفص وقد ثبتموها خلفية لأحد البرامج؛ وقع قوي على أصحاب الضمائر الحية.

أكمل إياد الحديث: أتت حبيبة لتكمل الطريق الذي بدأته أنا معها، تحمل فكرة لبرنامج أسمته "معتقل الأفكار".

ومما يعطي للبرنامج مصداقيته أن تقدمه واحدة ممن كانت تهمتها فكرة تحملها، وقد حمل صوته، فى ودٍّ: جميل، أعرف أن زواجكما نهاية الأسبوع، سعادتي بكما لا توصف؛ فقد بدأت قصة حبكما من محطتنا.

أرخت حبيبة جفنيها حياء، وقالت: طبعًا فقد تبنى إياد قضيتي أثناء اعتقالي، ولم تنته متابعته حتى بعد أن أُفرِج عني، لكن لا يعني التهنئة الآن أنك لن تحضر حفلنا بالتأكيد.

- بالطبع سأحضر نحن رعاة هذا الحفل، بل نحن أصحابه.

وقفت ممتنة له وهما يودعانه قال لها: لا تنسي، ستبدأ دوراتك التدريبية بعد أسبوعين من الزواج بعدها تتسلمين العمل بالمحطة. ولمعت العينان الخضراوان بالدمع مصحوبة بصوتها المرعوش: الحمد لله، تحققت أمنيتي أن أبلِّغ للعالم صوت هؤلاء الطيبين الأبرار خلف القضبان. خرجا وهما يشعران أن همًّا ثقيلًا أزيح عن كاهلهما.

obeikandl.com

دق باب غرفتها.. فتحت، وجدت أمامها شابة فارعة الطول كاملة الأناقة يضيء وجهها حجاب لؤلؤيّ لامع، وقبل أن تفتح شفتيها، عاجلتها سولاف قائلة: سولاف يحيى زميلة إياد.

أعادت حبيبة النظر إليها: نعم، أهلًا بالمذيعة المتألقة سولاف يحيى، معذرة لتأخري في معرفتك فلم أركِ شخصيًّا أبدًا، تفضلي. رجعت خطوة للوراء التقطت ثلاثة أكياس، أشارت حبيبة إلى فوتيه أحمر في ركن الغرفة، مدت يدها للثلاجة خلفها، وأخرجت زجاجة عصير قدمتها لها وهي تقول: بوركت تلك الخطوات. حانت الفرصة لأشكرك على برنامجك "حور خلف القضبان"، كان دعمًا حقيقيًّا لقضيتنا، وقد شعرنا في السجن بردود أفعال حلقة "نادين" فقد أتى لها الضباط في الزنزانة وأخذوها لمكتب التحقيق ليجبروها أن تخرج لتنفي حادث اغتصابها وتبرئهم في تسجيل مصور يذيعونه عبر إعلامهم، لكنها أصرت على موقفها، وقالت لهم: اقتلوني أرحم وأستر لي، لكني لن أمنح الإنسانية للذئاب التي اغتصبتني وأبرِّئهم من فعلتهم!!

بصوت خفيض ينم عن أدب: هذه رسالتنا التي نحيا لها، وقد تابعنا إضرابها عن الطعام وإيذاءهم الجسدي الذي أدى لإجهاضها، لكن قولي لي ما هذه الابتسامة التي علّت وجهوكن؟!

- جاءت عفوًا، لم نتفق عليها، كانت سخرية من مسرحية مهلهلة لممثلين فاشلين. ومدت ذراعها وهي تكمل: هل تصدقين أن هذه الذراع النحيلة تحمل آر بي جيه؟ أو أن تسقط ضابطًا بعاهة مستديمة؟!

- ببسمة حانية: كلا أيتها الرقيقة حد الدهشة، كلنا كان يعلم أنها مسرحية مهترئة تقطعت منهم وهم يوزعون أدوارها، دعكِ مما مضى، وانظري للهدايا التي أحضرتها لكِ، ليتها تعجبك.

أخرجت سولاف مجموعة فساتين زاهية الألوان، وزجاجات من عطور باريسية ثمينة وإشاربات بماركات راقية. سهمت عينا حبيبة وهي تقول: كل هذا لي؟!

شكرًا سولاف دمتِ لي حبيبة، سأصحبك يوم عرسك كله حتى أسلمك لإياد. سنعوضك عن أيام مريرة مرت بك.

وتبختر العروسان وعلت أصوات الزملاء والأصدقاء بالهتاف والشعارات. همس في أذنها: ثوريون حتى في يوم عرسنا!! ضحكت ضحكة مزغردة: لا أشعر بالسعادة إلا مع هؤلاء الأحرار.

وطارت صور العروسين فورًا إلى مواقع التواصل وصالات التحرير، دخلا القاعة وكانت خلفية مقعدي العروسين مفاجأة لها، صورة الخمس عشرة فتاة وقد توسطتهم حبيبة.

obeikandi.com

ابتسمت وهي تحدث نفسها: ليتكن معي الآن شريكات المحنة رفيقات الزنزانة.

وتوالت فقرات الحفل بكلمات للمهاجرين الجدد الذين فروا من الظلم، ثم مقاطع من شعر ثوريّ ألقاه أشهر مذيع في القناة، وكانت أشجى فقرة كلمة أم حبيبة عبر سكايب؛ فحركت مشاعر الحضور، وكأنها نسمة من هواء الوطن داعبتهم بحنان، ثم هفت وانطلقت زغرودتها مجلجلة فَعَلَت البسمات الوجوه، ثم توالت التهنئة من فتيات الحور رفيقات الفكرة إلَّا نادين غابت عن المشهد، وبانتهاء كل واحدة من كلمتها؛ يعلو التصفيق والهتاف، وأجرت سولاف حوارًا قصيرًا مع العروسين، قدمت له بنبذة مختصرة عن العريس إياد وتبنيه قضايا انتهاك حقوق الإنسان، وأن هذا ما جمع بينه وبينها، وكانت بداية ارتباطه بحبيبة، وأكملت حبيبة الحوار بعرض أحلامها كمذيعة واعدة، وعلا التصفيق والهتاف حينما قالت: أشكرُ إياد؛ فقد ساعدني على التحرر من قيودي الحديديّة، لكنّه لم يخلصه أن أبقى حرة طويلًا؛ فشبكني بقيوده الحريرية.

لكن ما أجملها من قيود.

ذهب العروسان لشقتهما لقضاء بقية الليل على أن يطيرا صباحًا إلى أسبانيا لقضاء أسبوعين عسل هناك، وفي أثناء إنهاء الإجراءات في المطار، همس الضابط له.. سألته: ما الأمر؟

obeikandi.com

أخبرها أنه مطلوب أمام قاضي التحقيق.

وقفت حبيبة وحيدة مندهشة..

أجرت اتصالات بزملائه؛ ليتعاملوا مع الأمر، ويستجلوا المعلومات..

ودوائر من القلق تنزاح في صدرها حتى جاءها الخبر.

صدرت له مذكرة اعتقال من الإنتربول بناء على طلب من السلطات الحاكمة في بلده باعتباره إرهابيًّا وتورطه في تعذيب أبرياء أثناء الاعتصام!!

ولم يكن أمامها إلا أن تبتلع حسرتها وتعود لتبدأ ما قام به هو معها.

obeikandl.com

قرار بلسعة العقرب

قبل هذه اللقطة كان عمر.. وبعدها صار عمرًا آخر، كان لم يزل فاتحًا للدنيا ذراعيه منتظرًا عطاياها ناهلًا من متعها الحلال، لم يقسُ يومًا على نفسه فلم يحرمها أبدًا من فسحة، من أكلة شهية، من ملبس غالٍ، لم يرفع راية الاستسلام بعد، فمازال العمر أمامه فإن لم يتحقق الأمل اليوم فسيكون غدًا.

أعشق هؤلاء الأطفال أدمن ملاعبتهم، فلو ظللت معهم ليلي ونهاري لن أمل، مريم طيبة تحبهم لكن من بعيد مدركة ولعي بهم فتتركني لهم وتبادلنا من آن لآخر بسمات الرضا وبعض الكلمات الحنونة المرحة، ثم تعود لما هي عليه من أعمال المنزل أو المتابعة الدقيقة للأخبار. فلها عالم آخر صنعته لنفسها، خرجت من ضيق الأماني إلى رحابة الواقع فتعددت اهتماماتها مابين عملها الحكومي كمحقق شؤون قانونية إلى عملها العام كعضو نشط في إحدى الجمعيات الخيرية التي تعنى بالمعاقين، بينما تتجلى متعتها في تبني القضايا السياسية والاجتماعية مما أثقل شخصيتها وجعلها أكثر عمقًا ودراية.

obeikandl.com

ودعاها ذلك لدعوة أفراد العائلة للقاء أسبوعي يوم الجمعة نناقش فيه الكثير من القضايا السياسية والاجتماعية نخرج منه بقناعة وآراء توجه بوصلتنا تجاه ما يحدث حولنا، حتى صار بيتنا قبلة يؤمه أصحاب الحاجات، دقًّا على الباب أو رنينًا على التليفون.

امتلأ عالمها وعالمي أيضًا، وإن كنت مثلها يؤخذ رأيي في كثير من المواقف المهمة في قريتنا واسمي على رأس قائمة فض المنازعات فيها؛ مما جعل أهل بلدي يقدمونني في المواقف الحاسمة كرئاسة وفد يطلب من المحافظ تخصيص قطعة أرض لبناء مدرسة ثانوية أو إلقاء كلمة في مؤتمر جماهيري، كما أنهم وضعوا اسمي في مجلس الآباء، وجعلوا لي كلمة المجلس في حفل نهاية العام، أنا التي لم أنجب!

كل ذلك وأن شغل مريم جعل لها كونًا آخر تدور فيه، إلا أنه لم يشغلني عن شوقي لطفل من صلبي أسمع منه كلمة بابا فقط وليست "بابا محمود" التي يناديني بها كل أطفال العائلة وحتى أطفال الجيران "بابا محمود" نعم تسعدني، لكن بي ظمأ أشد ما يكون لأسمعها منه هو. هو وحده، فهناك في ركن ما من نفسي فراغ لم يملأ ولن يملأ إلا بوجوده في حياتي.

وجاءت صورة اليوم لتضع حدًّا فاصلًا بين ما كان وما يجب أن يكون، اكتشفت اليوم وأنا أتسلم صوري الفوتوغرافية من الأستوديو؛ لأقدمها لشركة السياحة لأداء العمرة أن محمودًا آخر أمامي. هل هذا أنا؟!

هو رجل عجوز لا أعرفه، غارت التجاعيد في وجهه وتحول شعره الكثيف الأسود الفاحم إلى اللون الرمادي الحائل وتراجع كثيرًا للخلف والشارب الأسود الكث صار أبيض تمامًا، كيف لم تخبرني المرآة بما تحول إليه وجهي؟

ربما لأننا في المرآة نتحرك ونغير من تعبيرات وجوهنا، لكن الصورة محايدة واقفة جامدة وخاصة إذا غابت عنها البسمة، تأتي بنا كما نحن دون أي تزييف.

حملتهم وعدت لمنزلي. لا لست أنا الذي عدت، وإنما الذي عاد ذلك العجوز الذي تعرفت عليه اليوم فقط، عدت واستقبلتني مريم كعادتها ببسمتها المشرقة، وتركت كل ما في يدها وجلست بجانبي على السرير، ولكنّي صامت لا أتكلم.

فهذا عليٌّ طفل الجيران سأل عليك وأطفال إخوتي سيأتون اليوم ليسهروا معنا، وكنت بين جملة وأخرى أهز رأسي، ومن يومها خيم على حياتي معها سكون ملتهب فاتر كسكون الظهيرة، فلم يعد استجلابها لأطفال العائلة يسعدني كما كان، ولا افتعالها لرحلات طالما جذبتني، وكنت أنا الذي ألح عليها بها تنسيني ما بي، لكن فكرة تغيير حياتي سيطرت عليّ، ولم أعد أستطيع مقاومتها، عليّ أن أدرك ما تبقى من عمري، تعديت الخمسين

ولم يتبقَ لي الكثير، فلتكن الزوجة الثانية هي الدواء المر الذي عليّ أن أتجرعه كمحاولة تضاف لمئات المحاولات التي أشار علينا بها الأطباء من قبل، ولكن كيف سأخبر مريم بهذا القرار؟ أخشى عليها الانهيار، ولكنّي أنهار أنا أيضًا نفسيًّا وجسديًّا.

"أنا لن أخبرها " سأجعلها هي التي تفاتحني، تنكأ جرحي وجرحها والمسكوت عنه دائمًا في حوارتنا، نتطرق لكل الموضوعات ونأتي عند هذا ونصمت صمتًا محرمًا لا نحله إلا أثناء جولات الأطباء نتحدث فيه ونثرثر، وفي فترات الكمون نعود لصمتنا المحرم مرة أخرى، وبدأت خطتي لإجبارها على مفاتحتي، فلم أعد أضحك ولا أتكلم إلا للضرورة، وغالبًا أغلق عليّ باب غرفتي بعد عودتي من عملي بحجة النوم، ولكن لا نوم وإنما أقلب أمري.. كيف سأمشي في خطوات الزواج؟ ومن سيكون عونًا لي فيه؟ ومن هي التي تضاهي مريم؟، أو حتى تقترب من قامتها وشخصيتها الآسرة الجذابة؟

وجاءت اللحظة التي أردتها حين أيقظتني مريم من اللا نوم، ومالت عليّ قائلة:

- محمود، أعرف أنك لست نائمًا.

وبصوت أحمله وخم النوم: بل نائم.

- لا. لست أنت. فيك شيء تغير! أخبرني ما الذي يشغلك؟

شعرت أن اللحظة التي مهدّت لها قد أظلتني، وأنني اقتربتُ من كسر الحاجز الأول والأكبر، فقلت منطلقًا:

- إنها الصورة التي التقطت لي منذ أسبوع!

- ومال الصورة وتغيرك!؟

- فوجئت بعجوز زحفت التجاعيد إلى وجهه وغزا الشيب رأسه، انتابني ذعر.

بصوت متلجلج: ذعر!. من ماذا؟

- من انقضاء العمر دون قدومه!

تشنج وجهها واصفر وتصلبت أطرافها وصمتت ومضى الوقت أبطأ من بطئه، وانتظرت الكلمة الآتية، أعرف أنها ستكون زلزالًا لها ولي. وجاءت:

- لم أكن يومًا سببًا في حرمانك منهم ولا أنت، أتذكر حين قال لنا الطبيب" عقم غير معلوم الأسباب".

بإصرار على عدم تفويت الفرصة: وهذا أدعى لكي أجرب. وصمت.

- تجرب!. ماذا؟

obeikandl.com

- لا أريد أن أحزنك.

بعينين زائغتين من الهلع، قالت: فهمت، تريد أن تتزوج وأنا الآن مشكلة تعرقلك؟

- لست مشكلة. ولكن أتمنى أن تكوني جزءًا من الحل، وأن تكوني لي سندًا في هذا الأمر.

ألقت رأسها على كفيها وقالت: ناضلت غريزتي وألجمتها، لا. بل حولتها كلها لك فكنت لك زوجة وأمًّا وبنتًا، ولو استعرت منطقك هذا لجئتك من قبل أستسمحك في الرحيل حتى ألحق قطار خصوبتي قبل أن يغادرني إلى غير رجعة، لكني كنت على استعداد أن ينقضي عمري كله دون أسف عليه مادمت أنت بقربي.

كانت كلماتها تلسعني لكني كنت وضعت ملامحي في" ديب فريزر" ولم أسمح لخلجة من مشاعري أن تخونني حتى لا أتراجع عن قراري، وقلت: لكنه حقي.

ونطقت دموعها بفصاحة ولم أستطع أن أترك ملامحي طويلًا متجمدة أمام دموعها اللؤلؤية التي تستعطفني، قلت لها ويدي تربت على كتفها: ستكونين أنت الزوجة والحبيبة وسيدة بيتي، والقادمة ليس لها إلا أنها أم ولدي.

وبأصابع مرتعشة مسحت دموعها، وهي تقول: لا لن أدخل هذه التجربة، لم تعد نفسي تتحمل مزيدًا من كبت وقهر؛ لأدخلها في أتون الغيرة. يكفى.. يكفى.. يكفى. فليكن التسريح الجميل.

وقامت من أمامي وأغلقت عليها حجرتها، وأبت إباءً عجيبًا عن فتح الباب الذي أوجعته طرقًا.

وظللنا هكذا أسبوعين تقوم بكل أعمال المنزل، ثم تدخل حجرتها قبل أن أعود من عملي ولا تخرج إلا للضرورة. تصادف أحيانًا أن ألتقيها في الصالة أو المطبخ، أحاول أن أجعلها تعدل عن قرارها لكن لا فائدة، هذا وبحثي مستمر عن أم الولد القادمة، ودائمًا كنت أعود من رؤية إحداهن فأرى مريم أمامي مثال الأنثى الكاملة، أتمنى لو تتركني أقبلها وأحتضنها وأمسح في عينيها ما رأيت من قبح. وأخيرًا رتب لي زميلي في العمل موعدًا مع أهل فتاة وافقت على ظروفي وسني والدور المنوط بها، واتفقت مع أبيها على كل التفاصيل وحددنا موعد العقد، وعدت إلى البيت فلم أجد فيه مريم، رأيت خزينة ملابسها فارغة عرفت أنها غادرت إلى بيت أسرتها، كنت ساعتها كطفل ضائع وحيد تتقاذفه الريح، ولا يدري كيف يعود لحضن أمه.

وجدتني أطرق باب أسرتها، دخلت إلى حيث كانت هي ممدة على السرير وبجانبها أمها تلح عليها لتتناول الدواء وهي مطبقة فمها لا تفتحه، ودموعها تجري هادرة. أمسكت يدها بكلتا يداي، نزعتها مني قائلة:

- مبارك مشروعك الجديد.

بدهشة سألتها: من أخبرك؟

بنظرة ساخرة قالت: زميلك لم يشأ أن يفعل ذلك إلا بعد أن أخبرني لآذن له مراعاة للعشرة أو كما قال" للعيش والملح الذي طعمته في بيتك"

قلت لها بكلمات استخرجتها من أغوار جسدي: ستمر الفترة الأولى الصعبة عليك بعدها سيعود كل شيء إلى ما يرضيك.

قالت وهي تريد أن تكون كلماتها هذه الخاتمة: محمود، لا تحاول. فأنا أشفق على نفسي مما هو قادم، وأضن بالباقي من عمري أن يوأد في الحزن كما وأد أوله. فقد قدرت لنفسي حظها من الفرح والحزن بمقدار ما يحزنك أنت أو يفرحك أنت.

وآن لي أن أقدر مريم وأمنحها ما بقي من عمري؛ لتحيا على سجيتها هي. أرجوك أعطِ مريم حريتها.

ظللت أحايلها وأوسط أمها بيننا، لكن أمها أشفقت عليها ولم ترد أن تحملها فوق طاقتها وذعرت أشد الذعر عندما هددتها أنها ستمتنع عن الدواء والطعام حتى تنال حريتها، توسلت.. بكيت لتعود عن قرارها، لكنها أغمضت عينيها عني فأشارت لي أمها أن استجب. وأمام إصرارها واستعطاف أمها لي لم يكن هناك بد من اتخاذ قرار بلسعة العقرب.

لغم في كتاب

أنصحك يا ندى أن تعمِّقي قراءتك في النقد الأدبي، سيصقل تجربتك وسيمثل أمامك وأنت تكتبين.

هزت رأسها مقرَّة بما يقول، ثم سألته: أي العناوين تقترحها لي؟

أمسك بالقلم وكتب لها سبعة عناوين، قرأت. وجدت لديها منها ثلاثة، استفهمت عن الباقين، وعدها أن يعيرها لها بشرط أن تعيدها فور انتهائها، فقدْ فقدَ الكثير من كتبه القيمة نتيجة هذه الإعارات.

أشرقت ضحكتها، وهي تقول: لا تقلق أستاذ إسماعيل، سأعيدها أفضل مما كانت.

انتهى الصالون الأدبي وانصرف حضوره واستبقاها ليعطيها ما وعد، وببسمة طيبة شكرته على دعمه لها بالنصح وعلى رعايته للأدباء، فهذا الصالون يعد دعمًا باذخًا لمست آثاره في تطور كتاباتهم جميعًا.

في الصباح وهي تضع الكتاب في حقيبتها أثار انتابهها اسم المؤلف، قلقت قليلًا ثم أغلقت الحقيبة وذهبت، ألقت السلام على زميلاتها في القسم، بدأت بدعاء الصباح تابعت الملفات التي أمامها، بدأ يتوافد عليها

obeikandi.com

المواطنون لإنهاء تعاملاتهم، بعدما أنهت أعمالها أخرجت الكتاب، بدأت في قراءته، جذبها أسلوب الكاتب السلس وتصنيفه وحسن ترتيب الموضوعات، من آن لآخر كانت تراقب الطرقة الطويلة التي تفتح عليها جميع الأقسام، حتى إذا شعرت باقتراب أقدام أخفت الكتاب تحت الملفات، فهؤلاء لا يعرفون الفرق بين النقد ورفع الأنقاض، لن يلفتهم إلا اسم المؤلف، هذا وإن اجتمع اسمه مع اسمها فسيكون الأمر واضحًا مفسَّرًا لديهم، وستصبح جريمتها مثلثة، لما اطمأنت أن المار دخل القسم المقابل أكملت القراءة.

وكالعادة تجبرها ثرثرة زميلاتها على إعادة الجملة أحيانًا أكثر من مرة، لو تصمتن قليلًا لأركز المعنى في عقلي أكثر، لكن أين لي هذا! فمتعتهم في الثرثرة هي نفس المتعة التي أجدها في القراءة، فعلي أن أكون منصفة وأدعهم وما يحبون، فصلت نفسها عنهم تمامًا وغاصت في السطور، سمعت صوته قادمًا. بسرعة دست الكتاب في حقيبتها، وجلست متأبطة ذراعيها، دخل بوجهه المجدور وشاربه الأشيب، وزع نظراته على الجميع، أمطرته زميلة لها بعبارات الترحيب والتفخيم، فأعطاها ظهره، وأمام مكتبها وقف وسألها: ما آخر ما كتبت أستاذة ندى؟

برصانة ردت: بعض الخواطر واليوميات.

- ما زلت تكتبين في السياسة على صفحتك؟

بعيون مندهشة: هل تتابعني؟ لا أشعر بوجودك على صفحتي.

- أتابعك بدقة وإن لم أترك أثرًا. أخبرك بآخر ما كتبته؟

سهمت وانتظرت أن يثبت ما يقول.

بضحكة ساخرة قال:" برلمان الماريونيت"

وهي في غاية الضيق: ممتاز. أنت من قرائي ولا أعلم!.

هم بالمغادرة، التفت لها وهو على الباب قائلًا: ندى، الآن أنبهك خوفًا عليك، كما نبهتك من قبل، كفِّي عن الكتابة في السياسة، فغدًا لا أضمن لك ما هو الموقف معك؟ وأظنك رأيت الأسبوع الماضي؛ البوكس وهو يحمل زميلين لك من المبنى الملحق بمؤسستنا.

حملقت فيه مذهولة وقالت: وكأن الحروف كلاشنكوف!! منعتمونا من الكلام وجاء دور الكتابة. ماذا تركتم لنا؟

رمقها محذرًا وانصرف، ظلت ساهمة تفكر في تهديده، انتفضت على صوت زميلتها وهي تقول: ندى، لا تستهيني بهذه الكلمات، أغلقي حسابك وأريحي نفسك، هل تعلمين أن بكل غرفة في مؤسستنا هذه قد وضعوا عينًا لهم تنقل الهمسة ونظرة العين وإشارة اليد.

obeikandl.com

ضحكت وقالت لها: أزيدك أنا من الشعر بيتًا، قال لي البصاص في مرة سابقة وضعنا لك من يأتينا بكل تحركاتك وهمساتك، يا خوفي أن تكوني أنت هذه العين؟

وبنبرة جادة قالت لها: أهمس الآن في أذنك قبل أن يعدن من الوضوء، نحن أربع موظفات في هذه الغرفة وأشارت للمكاتب الفارغة. أتدرين من منا هذه العين؟

تنهدت تنهيدة حرى، وقالت: تراجعنا كثيرًا حتى عشنا مرة ثانية في عصر" إن الجدار له أذن".

أكملت زميلتها بصوت يائس: ولا ندري أي نقطة في الجدار هذه الأذن؟

واظبت على صمتها. مر يومان ولم يصعد إليهم. استشعرت راحة؛ فرؤيته لها ظل ثقيل يجثم على المكان الذي يتواجد فيه، همست زميلتها: يومان بلا بصاص! ترى أين هو؟

زلف لسانها وقالت: لعله عند رؤسائه يفرغ لهم التقارير.

عادت لكتابها وخطت خطوطًا تحت عبارات تناقش فيها الأستاذ في الصالون القادم، فرأت يدًا تمتد وتجذب الكتاب من يدها، رفعت عيناها فكان ذا الوجه المجدور.

obeikandl.com

سألها وعينه تبرق: تقرئين لهذا الكاتب الإرهابي؟ أما علمت أننا أحرقنا كتبه ومنعنا دخولها المكتبات العامة؟

بابتسامة رثاء قالت: لكنه ليس كتابًا في الدين.

وأسنانه تئز: مجرد اسمه على أي كتاب يصنف لدينا أنه كتاب يحض على الإرهاب! اتبعيني إلى مكتبي.

مضى ومعه الكتاب الجريمة، شعرت بفظاعة الجرم الذي ارتكبته من نظرات الهلع في عيون زميلاتها، خرجت تصحبها دعواتهن لها بالنجاة.

جلست أمامه، أعد ورقة محشوة بكربون، وبدأ في سؤالها: أتنكرين أني وجدتك تقرئين في عملك لهذا الكاتب الإرهابي؟

بثقة قالت: لا أنكر، أنا أديبة. وهذا كتاب في الأدب أحتاجه لترسيخ قدمي في هذا المجال.

تعرفين أن هذا الكاتب هو من أسس الفكر الإرهابي في العالم الإسلامي كله؟

بابتسامة مختزلة قالت: لا صلة لي بذلك. لن يتعدى الفكر كونه فكرًا.

علا صوته كالعرسة: وهل وقت العمل للقراءة أم لأداء واجبك الوظيفي؟

أنا لا اقرأ إلا بعد انتهاء عملي، وهل لو دخلت ووجدتني أثرثر مع زميلاتي كنت ستجري لي تحقيقًا لتلبسي بالثرثرة؟

obeikandl.com

- لا تثرثري ولا تقرئي.

حدجت فيه بعيون لا ترمش، وقالت: إذًا ماذا أفعل؟ أربع يدي وأجلس كما الأطفال في غرف الدرس!

- سأريك الآن كيف تجلسين كما الأطفال المخطئين صامتة مذعنة.

خرج إلى الطرقة وأجرى مكالمة، ساورها القلق، وقفت.. أشارت إليه أن تعود لمكتبها، أنهى المكالمة سريعًا، استبقاها في مكتبه، وما هي إلا دقائق وامتلأ المكان برجال الشرطة، تقدم قائدهم وتسلم منه حرز القضية "الكتاب اللغم".

واصطحبوها معهم لسؤالها حول البلاغ المقدم ضدها باعتناقها لفكر إرهابي وتكديرها للسلم العام بالكتابة على شبكة التواصل الاجتماعي، همت بالنطق لكن انحشر صوتها في حنجرتها، فالمشهد مهيب والتحول سريع، من دقائق كانت موظفة تمارس عملها، والآن متهمة بتهمة مروعة، يحيط بها أشاوس كأنهم يحكمون الحصار حول مجرم عتيد، مشهد فانتازي للغاية. تذكرت ولدها وعودته من المدرسة وفجيعته فيها حين يعلم، وزوجها وما ينتظره من عنت وقهر وهو يتعقبها في الأقسام وأماكن الاحتجاز، تمنت لو كان أتيح لها ولو دقيقة واحدة تتصل به لكي يغلق صفحتها حتى لا (يهكروها)، خرجت والعيون حولها دوائر تضيق وتضيق

obeikandl.com

وتوشك أن تعصرها عصرًا، صمت يحيط بالمكان إلا من همسات كأنها نمل يأكل أذنيها، نزلت الدرج وعلى باب المؤسسة وجدت البوكس في انتظارها، عشرات العساكر بملابسهم السوداء، ووجوههم المعكَّرة تحاصر المؤسسة، صعدت السيارة وانطلقت تشق قلب المدينة وعيناها مشتتان بين العائدين المفجوعين، وطريقها الذي لا تدري ما آخره، تتسع بداخلها مساحات الخوف من المجهول.

obeikandl.com

حلمي الذي أرتلّه

دخلت تزاحم بالأكتاف تخشى أن تتأخر عن موعدها، أخيرًا وجدت مكانًا، بعد أن أحسّ باضطرابها، أشار لها شاب إلى مقعده قائلًا لها: اجلسي يا أمي.

هزّت رأسها تشكره. جلست.. حوّلت عينيها إلى الشبّاك؛ تتعجّل المنارة التي طالما تراءت لها حلمًا وأملًا مخمليًّا، أحقًّا قد اقتربت من تحقيقه ولم يعد بيني وبينه إلا تلك المحطات التي يأكلها المترو ويطويها طيًّا؟!

سأدخل اليوم جامعة القاهرة بقدميّ؟ ضغطت على يدها بقوة لتصدق أنّها ذاهبة إليها فعلًا، حدثت نفسها: قلقة أنا من امتحان القبول هذا، هل سأجتازه بسهولة؟ يا ربّ هوّنه فلم يعد أمامي إلا هذه الخطوة.

عشرون عامًا منذ أن تخرّجت من الثانويّة العامّة، أعود بعدها طالبة مرة أخرى! كم رأيت فيهم أهوالًا وتهت في دروب، ونزلت منحنيات، وصعدت هضابًا عسرة شاقّة؟!. لكن ظلّ حلمي شاخصًا أمام عيني، نابضًا يستنهضني، وإن كانت ظروفي قهرتني وأخرتني، لكنّه ظلّ لامعًا هناك في

نهاية الممر الضيّق كأنّه ماسة نادرة تستحثني على تحمل ظلمة النفق الطويل الممتد، ملكني وحان الوقت لأمتلكه.

وأخيرًا ظهر اسم أجمل محطة تنتظرها حبيبة من عشرين عامًا "جامعة القاهرة "، وتوقف المترو، وتراجع الزمن، ووقفت حبيبة وانحشرت ثانية بين الأكتاف المتدافعة. أسرعت على كوبري المترو المعدنيّ المؤديّ إلى بوابة الجامعة تشقّ طريقها في الزّحام، باعة جائلون بعرباتهم، وبضائعهم المختلفة.. نظّارات شمسيّة وملابس وأحذية حتى السلّم لم يسلم منهم؛ فقد افترشه باعة الكتب والروايات، ولم يسمحوا للمارّة إلا بسنتيمترات قليلة يعبرونها بصعوبة، دلفت سريعًا من البوابة الحديدية، "دار العلوم".. هكذا قرأتها بقلب يرقص طربًا.. رأيتك عشرات المرّات في أحلامي، وها أنت حقيقة أمامي.

- أخشى أن أتأخر.

لكنّها ما إن رأت مبنى الكليّة وصعدت عيناها إلى لافتة أمنيتها الدفينة. وقد طُليت باللّون البنيّ المائل للاحمرار، وتوسطه اسم الدّار باللّون الفضيّ. لفتتها نوافذها الخضراء العالية العتيقة. وقفت أمام سلّمها ذي الساتر المعدنيّ وسرحت تحدث نفسها:

– بوابة عتيدة!! أجيال تعاقبت عليك، قامات لمعت في سمائنا، تأمّلت حدائقها وهي تقول:" كم جلس فيك شباب وشابات ينسجون الأحلام ويوشّونها باللآلئ ويواقيت الخيال"!!

تمشّت في الرّدهة المؤدّية للقاعة المنعقدة فيها المقابلة، مزدحمة عن آخرها، غالب الموجودين شباب وشابات وأقلّهم مَن في عمرها وأقلّ قليلًا، ومنهم مَن هم أكبر منها كثيرًا، فاطمأنّت أنّها ليست وحدها في هذه السّن فاستأنست بهم.

جلست بجانب مجموعة من الشباب يقطعون الوقت بالحديث والضحك على النكات التي تتخلّق من أعمارهم.. ضحكت معهم وتلبستها روحهم الخفيفة المرحة، سألها أحدهم:

– تعتقدين كيف ستكون الأسئلة؟

تحيّرت قليلًا ثم قالت:

– أعتقد ستكون في إتقان اللّغة وضبط الكلمات.

تدخّلت فتاة منهم وبابتسامة طيبة قالت:

– ربنا يستر. أنا في النّحو مش أوي.

سمعتها حبيبة فقالت:

– أمّا أنا فالذي جاء بي إلى هذه الكليّة هو حبي للنّحو واللّغة.

obeikandl.com

وفي لحظة التفتت المجموعة لها، وقالوا: إذًا لن نتركك حتى تعطينا فكرة، وتذكّرينا ببعض قواعد اللّغة التي ربّما غابت عنّا.

وجدت حبيبة نفسها وقد تلبستها روح المعلّمة.. تشرح لهم وهم يتابعونها بنظراتهم المعجبة. بسّطت بعض قواعد النّحو.. وعرجت على ذكر بعض الأشعار، وتوضيح مواطن البلاغة فيها.

ودبّت حالة من المرح بينهم، وسرى ماء الشّباب منهم إليها.. صغرت كثيرًا كثيرًا، ونسيت ما تركته في بيتها من إرث سنين عجاف، وزاد عليه أخيرًا تلك الصّيحة التي أطلقتها ابنتها، وها هي ترنّ- الآن- في أذنيها.

- لا تدخلي الكليّة التي أنا فيها.. أمامك الكثير من الكليات.. لا أريد أحدًا أن يقول البنت وأمّها، ويجمعني أنا وأنت صف دراسيّ واحد مما يدعوهم للتندّر بي. هل انقلب الهرم؟!

ونأى بها خيالها بعيدًا عن صحبتها الجديدة إلى واقعها المؤلم فلم تسمع صوت المنادي وهو يعلمها بدورها في الدخول للمقابلة. حتى غمزتها سالي تلك الجميلة التي سألتها منذ قليل عن بعض التوقعات للأسئلة.

دخلت حبيبة بقامتها الطويلة، ووجهها البيضاوي، وعينيها العسليتين اللامعتين بالإصرار، مثقلة بأمنية ثمينة.. وارتها بملابس بسيطة: جيب سوداء تقادم العهد بها، وجاكت أخضر كأحلامها التي لا تشيخ، وإيشارب

تحجب به شعرها بطريقتها المتفردة في حبكه، دخلت القاعة المكيّفة الواسعة وقد جلس ثلاثة من الأساتذة لكلّ منهم مجموعة من الطّلاب يختبرونهم، أشار لها أحدهم أن اجلسي.

وجدت ثلاثة من زملائها يجلسون.. انضمّت إليهم وتطلّعت للدكتور تنتظر الأسئلة.

ألقى الدّكتور السّؤال موجهًا نظره لزملائها: شابين، وفتاة يبدو عليها الارتباك، وجاء السّؤال من مؤلف قصة دعاء الكروان؟

- أجاب أحدهم: يوسف إدريس.

فانبرت حبيبة تصحّح: طه حسين.

أعارها الدّكتور نصف عينه، وألقى سؤالًا آخر للفتاة:

- ما الأسماء الموصولة؟

وضع الثلاثة المتقدمون رأسهم في رأس بعض يفكرون. لكن حبيبة لم تصبر وانطلقت تجيب.

ضحك الدّكتور وهو يقول:

- مهلًا مهلًا. سيأتي دورك.. ما اسمك؟

وقد احمرّ وجهها، وأرخت جفنيها وهي تتدارك لهفتها على الاستئثار بالإجابة:

- حبيبة حسين محمود.

obeikandl.com

وبنظرة لينة قال لها:

– لك سؤال حصريّ دون زملائك هؤلاء.

وجمت حبيبة من السؤال المنتظر. شعر الدّكتور بذلك.. فرحمها وأسرع بالسؤال:

– ما الذي دعاك للالتحاق بالجامعة في هذه السّن؟

وكأنّه نكأ الجرح.. فسبقت الدموع الإجابة.

وبنظرة مذهول قال لها وهو يتملى تلك العيون الجميلة وهذا الوجه الصبوح:

– هوّني عليك. هذا السّؤال نسأله لمن في مثل سنّك؛ لنعلم مدى رغبته في التعلّم، واختياره لهذه الكليّة بالذات.

وكأنّها تزيح صخرة من على صدرها طال جثومها زمنًا طويلًا، وأخيرًا وجدت من يساعدها على دفعها بعيدًا.

– قالت: أتعرف يا دكتور ندّاهة يوسف إدريس؟

هزّ الدّكتور رأسه مؤكّدًا ومشجّعًا لها أن تكمل: داخلي ندّاهة تناديني من سنوات طوال، وتصرخ فيّ: تعلمي.. تعلمي.

شعرت بوقع الكلمات عليه، وأكّد شعورها نظرته المتأمّلة لحالة فريدة أمامه، وقال:

obeikandl.com

– واللهِ ستدخلين الكليّة وستجلسين أمامي في المحاضرات، ولن أتركك وسأدعمك بكل ما أوتيت.

واختلطت البسمات بالدموع، وارتجفت الكلمات على الشفاه، وخرجت متقطّعة، وتحوّل وجهها إلى بورتريه عبقري لاختلاجات المشاعر الإنسانية الحزينة، والفرحة المدهوشة في آن واحد!!

وتقطّعت الحروف وهي تقول: أش..كرك. أشكر لكِ تبشيري بالنّجاح في المقابلة دون من سبقوني.

ووقفت لتغادر. نظر إليها زملاؤها بابتسامة حانية مغبطة مهنئين لها اجتياز المقابلة دون ألف طالب وطالبة هم عدد المتقدّمين في هذا اليوم للمقابلة الشخصيّة.

خرجت من الباب، وكعادة المتقدمين طيلة اليوم كلّما خرج أحد من القاعة سألوه بلهفة:

– السؤال كان إيه؟

وبنشوة فراشة طائرة هزّت رأسها وهي تقول:

– خير.. خير.

وعبرت الردهة الموصلة للسّلم سريعًا تبحث عن ركن قصي تختلي فيه لتبكي طويلًا طويلًا، تتمنى لو قبّلت تلك الأعمدة، وهذه الجدران.

أسندت ظهرها لأحد هذه الأعمدة الشامخة.. وانهارت بكاءً كأنّ سيلًا من مآقيها قد انحدر. وعبثًا تحاول زمّه، تجري وتجري هطالتين تحدّث نفسها وسط هذا السيل:

– ها أنا الآن فيك يا أملي الذي ما مات وما فارق وجداني أبدًا. شتّان بين تلك اللّحظة ولحظة أن قدّمت لك أوراقي، ثم جاء أخي وسحبها قهرًا كي يزوّج الأمة من سيدها، لم يشفع بكائي وتوسلاتي له ليتركني أتعلّم قالها صارخًا في وجهي:

– لن أنفق عليك. ألا يكفيني أبوك المريض وحمله؟! وهذا عريس لقطة يمتلك عشرين فدانًا وحده دون إخوته، وينحدر من عائلة من أعرق عائلات مركزنا، سيأخذك دون إعنات لنا، احمدي ربّنا أنّه ترك كلّ البنات ذوات الأصل العريق، والحسب، وجاءك أنت الفقيرة المعدمة، تذكرت نظرتها وهي تدفع الكلمة له دفعًا:

– فليذهب لهنّ ويتركني أتعلّم.

أمسكت بخدّها تتحسّس صفعته التي برقت لها عيناها، وهو يقول:

– بطرانة. بطرانة.

تزوّجت، ودخلت الفيلا الفخمة التي لم يرتقِ مقامها فيها أبدًا أكثر من خادمة.

عشرون عامًا حصادي منها ثلاثة أولاد: ابنان وبنت، لم أشعر أبدًا أنّي أنتمي لهذه الأسرة.

كانت قمّة في الأرستقراطيّة إلى حدّ أنّي لم أتمكن أبدًا من الحصول على احتياجاتي من ملبس أو دواء أو أي شيء دون عناء، يوم أن أتقدم لزوجي بطلب لشراء إيشارب أو جيب، أو علبة دواء، فهو موعد غسل وسادتي بدموعي.

– أنتِ هنا تأكلين، وتشربين، وتربين أولادك، وكفى.

حاولت كثيرًا أن أتقرّب له، أُلاطِفه.. أخرج الأنثى التي بداخلي.. لكنّ الدّماء الزّرقاء التي كانت تجري في عروقه حالت بيني وبينه. كانت مسوغات تعييني في هذه الفيلّا هي ذلك الجمال الأخّاذ، الذي سلب لبّه فرغب أن يقتنيه ليضيف بعدًا جماليًّا آخر لمقتنياتها الثمينة. فلم يحاول أبدًا أن يتسلّل إلى روحي. دائمًا كانت غزواته في الفراش، فلم يرَ فيّ تلك الرّوح الشّاعرة.

لم أستطع أن أتلو على مسامعه ولو مرّة واحدة كلماتي التي كنت أسطرها، وأخرج فيها ما لم أستطع أن أبثّه إيّاه. كانت شعرًا يترقرق عذوبة كما وصفه كلّ من سمعني أنشده.

كتبتُ وكتبتُ، وامتلأت كراساتي، لكني ما تجرأت يومًا على تلاوته

عليه وكيف أتلوه؟! ولم يشعر مرّة واحدة وأنا لصقه في الفراش أنّه ربّما أخذني إليه ووجهي في النّاحية الأخرى باك منتحب، ولم يدرِ ما بي، ولم يحاول أن يتبيّن ما هناك حتى ينهي حاجته فيتحوّل الناحيّة الأخرى دون كلام أو سؤال.

أفاقت حبيبة على يد تربت على كتفها، وأخرى تمسح دموعها. رفعت رأسها فإذا هي سالي ذات البسمة الطّيبة.

– مالك يا طنط؟! ولِمَ الدموع، وقد بُشِّرتِ بالقبول قبلنا؟!

نظرت إليها بحنّو وقالت: لأنّي بُشِّرت بالقبول سالت دموعي فرحًا.

ابتسمت سالي وهي تقول: أتمنى أن ألقاك في مدّرج الجامعة إن قبلوني.

هزّت حبيبة رأسها مؤكّدة. مشت توزّع نظراتها المتحمّسة على القاعات والردهات والأعمدة والحدائق حتى خرجت من البوابة العتيقة، ولو خيرت لظلت فيها تمتلئ حتى تتضلع منها.

عادت للفيلا. ولم يكن هناك من ينتظر نتيجتها، ولا من يقلق على إجراءات تقديمها.

دخلت.. سلّمت على زوجها وابنتها بجانبه في بهو الاستقبال، جلست على المقعد المقابل.. انتظرت كلمة، استبطأت تفاعلهم. همّت بالقيام،

ثبّتها زوجها بصوته المرتفع قائلًا:

- أمي أرسلت لك الغسيل، وتريدك أن تذهبي لمساعدتها في الاغتسال.

أدارت رأسها له بصوت تملأه الرتابة:

- حاضر، سأنفذ ما طلبت.

ودخلت غرفتها كي تنفرد بفرحتها تسترجع كلمات الدكتور وتتخيّل نفسها في المدرّج أمامه، وفى البنش الأول وسط زملائها، وهى تستمع إليه، ودخلت "رحمة" عليها وهي منصتة تمامًا للمحاضرة، وبوجه شمعي قالت: صمّمت على نفس كليتي ولم تراعي إحراجي أمام زملائي. لِمَ لَمْ تدخلي أيّة كليّة أخرى؟ وقد آلمتها الكلمات: لأنّها أملي، ووجهتي قبل أن أحمل فيك، وما أحببت أنت دخولها إلا من ترديدي دائمًا أمامك اسمها، ونشداني الشعر والنثر لكِ وأنتِ تلعبين وتمرحين، حتى نشأتِ وأنتِ تحبين اللّغة وتتذوّقينها.

رحمة وكأنّها تكمل لأمّها الكلام: وصمّمت على دخولها حتى لو تعليم مفتوح عندما لم يساعدني مجموعي على دخولها.

اعتدلت حبيبة في جلستها على السّرير، وقالت بثبات وعيناها تومضان:

- إذا كان ما يشغلك هو قول زميلاتك: "البنت وأمّها" ؟!! لا تخبري

أحدًا أنّي أمّك، ولن أحاول أن أتواجد في مكان تكونين فيه. أيسرُّك ذلك؟!

رمقتها رحمة بنظرة مضطربة وهمّت أن تنطق، لكن سبقتها قدماها في الخروج.

فأخرجت ما بها في الباب؛ فارتجّت حبيبه من صوت ارتطامه وقالت في نفسها:

– بنت أبيك. كل ما فيكِ له، لا ترين إلا نفسك. أنانيتك وتمحورك حول ذاتك، واعتزازك بعرقك مثله تمامًا، أعرف أنّ حنقك عليّ دخولي الكلية ليس منبعه كلام زميلاتك ولكنّه استكثار، تستكثرين عليّ أن أشاركك نفس الوضع والقيمة التي لا يجب أن يحوزها إلا أنتم عائلة البشبيشي، تريدين أن تتميزي حتى لو على أمّك. ابنتي وأعرفك أكثر من نفسك، ألم يُسْمعك أبوك وجدتك طول عمرك أنّكم أفضل سلالة في المركز، وأنّنا ناسبنا أقلّ عائلة وأفقرها، وليتنا ناسبنا من هم كفء لنا!!

إنّ أخويك ينزوان ويتضاءلان أمام غرورك ونرجسيّتك، وكأنّه لم ينجب سواك. يظلّ أخواك يذهبان بيني وبينه لكي يتعطّف ويشتري لهما حذاءً أو قميصًا أو حتى كرّاسًا وأنتِ دون أن تطلبي يعطيك بسرف!!

وتذكّرت الماراثون اليومي ما بين السّطح والمطبخ، ورعاية الجدّة العجوز ذات اللّسان السليط فقامت لتلهث ككلّ يوم.

سمعت صوتيهما من بعيد ينادي بلهفة:

– ماما.. ماما.

- أنا هنا، تعاليا.

أخذها حسام من خلفها معانقًا رقبتها قائلًا:

- هيه.. طمنينا، ما نتيجة المقابلة؟ قبلوك؟

ونزع هشام يدها من حسام قائلًا: طبعًا يا حبيبي. كيف لا يقبلونها؟ والبلاغة، والشعر ينسابان من شفتيها. لن يجدوا أولى بدار العلوم منها.

بنظرة ملؤها الرضا قالت: وماذا تنتظران من أمّكما حينما لا يكون بينها وبين حلمها إلا خطوة؟ سأطير له، لن أعبرها أو أخطوها. الحمد لله بشّرني الدّكتور دون غيري أنّي قُبِلت، ولم ينتظر أن يرسل المركز رسالة على الإيميل بعد ثلاثة أيام كما هي العادة.

وهنا هلّل صوت حسام بطبيعته المرحة قائلًا: مبارك يا ماما، العقبى للبكالوريوس، ثمّ الماجستير والدّكتوراه حتى تغيظي جدّتي دولت، وقطع وصلة سعادتهم صوت قاس فظّ يصيح:

- علام تباركون؟! وقعنا على كنز أم انفتحت طاقة القدر؟! كما يقول المثل:" بعد ما شاب ودّوه الكُتّاب"!!

ران عليهم صمت وسؤال مكتوم داخلهم هل سمع اسم جدتي دولت في كلامنا؟ أشارت إليهما أن اذهبا إليه وغالبت ما بها من حزن. وظلّت ترتّب مسئولياتها القادمة، ومشغولات الكروشيه التي عليها أن تنتهي منها

obeikandl.com

لكي تكمل مبلغ المصروفات الدراسيّة. عليّ أن أُفرغ وقتًا كافيًا للمذاكرة بعد ذلك، لا أريد نجاحًا فقط، ولكن أريد تميّزًا. لن أدع أحلامي المحلّقة أن تنكسر أجنحتها مرّة أخرى.

بدأت الدّراسة، واتّخذت "رحمة" من أمّها مكانًا قصيًّا لمراجعة محاضراتها، واعتمدت حبيبة على نفسها ولم تسألها عن شيء، وكانت الجروبات التي تجمعها بزملائها على الإنترنت هي نافذتها على المحاضرات التي لم تواظب عليها، تطّلع منها على ما أكد عليه الأساتذة من المهمّ والملغي في المنهج. وإذا سنحت ظروفها انتهزت يومًا قليل الأعباء لتذهب لحضور بعض المحاضرات. هناك يختصر العمر، وتعود حبيبة الشّابّة المتطلّعة للمستقبل، تتملّكها روح خفيفة طائرة تفيض على زميلاتها. وتتبادل معهن النكات البريئة، والأحاديث الطّازجة المنعشة.

قرّبت المحاضرات بينها وبين سالي ذات العشرين عامًا، تلك البيضاء بأسنانها اللؤلؤيّة، ومبسمها العذب، وعينيها الخضراوين، والقوام المنحوت بعناية، وملابسها التي تنم عن ثراء عريض، والأجمل من جمالها تلك النّفس العالية التي تحتوي وتدفئ من يأوي إليها.

فقد أخذت على عاتقها حينما اقتربت من حبيبة ولمست مثابرتها وحلمها العنيد لنيل الدّكتوراه أن لا تدع شاردة ولا واردة إلا وأعلمتها بها،

وأمسكت بيد حبيبة وبعيون دافئة محبة قالت:

– أنت أمي وزميلتي، ولن أترك أمي تحتاج أبدًا. ظروفي تسمح بالحضور الدّائم والحمد لله، لي حضور جيد، وتفاعل مع الأساتذة أثناء عرض المادّة العلميّة.

نظرت لها حبيبة بحنو. ربتت على كتفها وظهر في نظرتها الرقيقة التي تألقت بريقًا وهي تقول:

– أبدلني الله بك عن عمر ظننته ضاع في خدمة من لا يراني أهلًا لأيّ خير. ولكنّ الله حفظه، وادّخره لي فيكِ.

وأثناء خروجهما من القاعة اصطدمت حبيبة برحمة وهي تضحك بسخاء مع زميلاتها.. فلما وقعت عيناها في عيني أمّها سحبت نظرتها وقلّصت ضحكتها. همّت حبيبة في اللّحظة لو تأخذها من يدها وتقدّمها لسالي فخورة بهذه الشّابة الجميلة الفاتنة وتقول لها هذه ابنتي.

وفي لحظة طالت وامتدّت كتمت نداءات أعماقها باحتضانها، لكن بقيت مشاعرها الغرائزيّة التي لا تقبل أي تساؤل، أو عدم تسليم، بقيت مشدودة لخطوات ابنتها التي كشحت عنها وظلّت عيونها مثبّتة عليها، حتى لاحظت سالي فقالت لها:

– هل تعرفين هذه الفتاة؟

obeikandl.com

قالت حبيبة بعيون منطفئة: إنها ابنتي.

وبابتسامة حائرة بين الاستنكار الخفيف، والشفقة الشديدة، وبنظرة ذاهلة قالت:

- كيف؟ ولِمَ؟!

وبصوت متهدّج، وبرغبة طبيعيّة في البوح.. باحت حبيبة لسالي ما جعل سالي تصرّ أكثر من ذي قبل على دعم حبيبة في تحقيق حلمها البرئ.

ومرّت الأعوام الأربعة مابين سعادة بالنتائج الباهرة لحبيبة، ومابين عنت في تدبير المصروفات حتى جاء التّيرم الأخير، وجاء موعد تسديد الرسوم، ولم تكن حبيبة قد أكملت المبلغ؛ فقرّرت أن تذهب وتعرض على البنك الذي تحوّل فيه للجامعة التّقسيط لعلّه يوافق.

وسألت الموظّف وهي متردّدة مهزوزة: هل لي أن أقسّط المبلغ؟

فحرك الموظّف رأسه يمينًا وشمالًا، وقال: لا يسمح بذلك!!

طأطأت رأسها.. وانصرفت كسيرة، وهي تدير في رأسها السؤال العقيم، كيف لي أن أدبّر الخمسمائة جنيهًا المتبقية؟!!

لم يعد الكروشيه مطلوبًا كالسّابق؛ تحوّل الطّلب إلى المفارش الصيني الموشّاة بالخرز والكنزات الجاهزة، ولم يعد أحد يطلب مني مشغولاتي سوى هذا التاجر الذي يعطيني الصّوف لأعيده إليه مغزولًا.

obeikandl.com

– لم يتبقَ عن موعد انتهاء التّسجيل سوى خمسة أيام ماذا أفعل؟

– أطلب من جبران؟ لا، لا. لو طلبت منه لن يعطيني، ولو وقفت على أظافري، فقد أعطى أوّل أمس لرحمة مصروفاتها وزاد عليها ألف جنيه قائلًا لها:

– هم معك لو احتجت ملابس أو أي شيء آخر.

عادت وقد صفت "رحمة" أمامها أكياسًا من قطع ملابس، وفي يدها وصل تسديد الرسوم تقرؤه لأبيها وهو سعيد بما أتت، قائلًا: عجباني أوي بلوزتك السماوي الجديدة.. دي تحفة.

قالت له: والفستان يا بابا الأصفر لم يعجبك؟ ذبت فيه وهو على المانيكان.

– جميل جدًّا. لكن البلوزة لونها مفضّل عندي.

قالت حبيبة وهي تشعر أنّها فضولية في سؤالها: دعيني أرى هذه القطع الجديدة يا رحمة.

أتت بها رحمة ووضعتها أمامها، وعادت لمقعدها، ولم تهتم أن تخرجها من أكياسها أو تسمع رأيها.

قلّبت حبيبة فيها بسعادة وهي تقول: غاية في الجمال، ذوقك حلو أوي يا رحمة.

وهنا انطلق جبران قائلًا: طبعًا، أليست من عائلة البشبيشي، أصل الذّوق والرّقي؟!!

ردّت رحمة بسرعة: طبعًا يا بابا دي جينات.

قالت حبيبة بشجن يملأ جوانحها: بورك لك فيها حبيبتي، فأنت من تضفين على ملابسك الرّقة والجمال، واللهِ.

ظلّت ساهرة قلقة، فسيأتي الصباح.. ولم أدبر المبلغ بعد.. ماذا أفعل؟

تقلّب جبران في نومه من حركتها الكثيرة تنبّه.. سألها: لماذا لم تنامي؟

قالت حبيبة بصوت يتودّد له: قلقة لم أستطع إكمال مبلغ الرّسوم، وآخر يوم تسديد غدًا.

– قال: كان أمامك فترة طويلة بين التّرمين لتدخري من الكروشيه.. لماذا لم تفعلي مثلّ كلّ مرّة؟

بيأس قالت: لم يعد الطّلب على الكروشيه كما كان.

جذبها إليه. ضغط عليها بقوّة في حضنه، شعرت أنّها حبّة طماطم تعصر، لكنها تحمّلت ولسانها يدخل ويخرج. همّت أن تجرّئ لسانها وتطلب المبلغ المتبقي، لكنّ قوة قاهرة كانت تمسك الكلمات، أسندت رأسها على كتفه، وتركت نفسها بين يديه وثبّتت عينيها في اتجاه المرآة، وانهمرت دموعها حتى سقطت على كتفه فدفعها جانبًا وهو يقول:

- نكديّة حتى وأنت في حضني!!

قالت بصوت متهدج:

- لست نكديّة، ولكنّي بائسة أحيا في صيت من عزّ وأصل عريق، وأراضي وأملاك، ولكنّي فقيرة أشدّ الفقر. لا أشتري بلوزة إلا إذا ادّخرت ثمنها، ولا أستطيع أن أدفع رسوم دراستي إلا بجمع الجنيهات القليلة التي تأتيني بانحناء ظهري ونور عيني الذي يتضاءل يومًا بعد يوم من سهري في غزل الألوان الدّاكنة.

قال لها وهو مغيظ حانق:

- يكفيك أنّك تعيشين في عائلة لم يكن أهلك يحلمون حتى بالعمل عندهم، لو لم يعجبك حياتنا الباب يفوت جمل.. حقًّا بطر.

ثم التفت عنها.. وما هي إلا دقائق وسمعت صوت غطيطه!

قامت إلى الشُّرفة، وجلست على مقعدها الخيزران العتيق ونظرت للحديقة الغنّاء التي تحيط بالفيلا، والتفتت خلفها تتأمل ذلك الأثاث العريق، وهذا السجّاد الشيرازي الذي يتوسّط البهو، والسّلم الرخامي ودرابزينه النّحاسيّ والثريّا البهيّة ذات الأضواء كأنّها نجوم السّماء ترصّع السّقف الفخيم، عادت للقمر ورفعت عينيها له تتأمّله وتبكي، كثيرًا ما جلست أمامك أيّها القمر وأنا أسبح على زوارق من أحلامي لكنّي اليوم

أخشى أن تعاودني العواصف مرّة أخرى فتغرق زورقي ثانية وهذه المرّة لن أتحمل، أذّن الفجر وهي مع القمر، فقامت تتوضأ وتصلّي ودعت في سجودها أن يفتح الله لها بابًا تستكمل منه المبلغ.

قامت لإعداد الفطور، وقام هو عابس كعادته وقد أخذت ملامحه كلّ خواص السُّحب الدّاكنة منذرة بهبّة عواصف مزمجرة.

تمنّت حبيبة لو ابتلعها المطبخ فلا تخرج منه لتتلقى ما يتساقط عليها من حطام، وهل يترك جبران نفسه دون أن يخرج ما بها من كركبات ورعد وبرق، وبدأت العاصفة.

- يا أنتِ... متى سنتسمّم؟

نفخت تخرج طبقات من الضّجر تملأ صدرها، تنهدت، ثم رفعت صوتها واجتهدت لكي لا تخرج فيه الزفرات الغاضبة:

- حاضر الفطار جاهز، دقيقتين فقط.

وسريعًا التقطت الأطباق من منضدة المطبخ، ووضعتها أمامه، وأحضرت الخبز والماء، وهو يواليها الصّرخات، ثم وقفت تنظر ما سيأمر به، نظر إليها محتفظًا بجبين مقضب، وقال:

- تعجلي رحمة؛ فلن آكل إلا وهي أمامي.

ذهبت لحجرة رحمة.. وجدتها تمشّط شعرها، قالت لها بصوت متعجل:

- أسرعي يا رحمة، أبوك لن يقرب الطّعام إلا وأنتِ أمامه. هيّا لا تتأخري.

نظرت إليها، وأكملت عقص شعرها، والتفتت عنها وقالت:

- حاضر. حاضر سآتيه حالًا.

وبعد أن اطمأنت أنّهم لا يريدون شيئًا، لاذت بحجرتها؛ تحتمي بها من برد المشاعر الذي يحيط بها، ونزلت الدموع مدرارة لتبدّد صقيعًا ملأ جدران هذا البيت. إلا جدارين من قلبين دافئين.

وعادت لها الحيرة.. ممن سأطلب المبلغ؟ إخوتي فقراء لا أستطيع أن أميل عليهم وأطلب؛ عمّال أُجراء لا يستطيعون أن يكفوا أولادهم أساسيّات الحياة. وفجأة واتتها فكرة.

- لماذا لا أتصل بسالي، وأطلب منها المبلغ المتبقي؟ لن تؤخّر سالي طلبي.

أتت بالتليفون من حجرة رحمة، لمحت على التسريحة حقيبة ابنتها مفتوحة، وأتاها فضول لتنظر في حافظة النّقود مكتظّة عن آخرها بمبالغ من فئة المائة، والخمسين، والعشرين. تلفّتت حولها لعلّ أحدًا يراها، وضعتها سريعًا وأغلقتها وهي تنظر باتّجاه الباب.

ابتلعت حسرة مريرة، وغمغمات تدور في رأسها، وتناولت التليفون.

جاءها صوت سالي مبتهجًا فرحًا باتصالها: ماما حبيبة أهلًا.. أهلًا.

حبيبة بارتباك: بل أهلًا بك، وبصوتك العذب الذي يسعدني.

– كيف حالك يا ماما؟ سجلت في التّرم الأخير. خلاص هانت وها نتخرج آهه.

– إيه، إيه.. آه. أريد أن..

– سجّلتِ صح.. الحمد لله أنا سجّلت من بدري.

– أستحي أن أقول لك أنّ ما جعلني أتّصل بك هو أنّي لم أسجّل لعدم قدرتي على استكمال المبلغ المطلوب، وأتمنى عليك أن... وقبل أن تكمل شعرت سالي بأزمتها، فقالت:

– قولي لي يا ماما ما المبلغ المطلوب؛ أرسله لك أو أقابلك في البنك وأعطيه لك؟

حبيبة وهى تغالب حياءها ارتفع صوتها لتثبّت نفسها خمسمائة جنيهًا، عجز الكروشيه أن يكملهم لي. مبلغ ضئيل يا ماما، ولو كان المبلغ كلّه لأتيتك به.

أخذتها الكلمة وقالت لنفسها:

– وهل زوجي أقلّ منكم؟! صاحب الفدادين، ومالك تلك الفيلا الفخيمة التي لو رأيتها– أي سالي– لظننتِ أنّي أدّعي الفقر وأستغلك!!

تنبّهت، وعادت تشكرها، وترتّب معها كيف تقابلها لتأخذ المبلغ، واطمأنّت أخيرًا أنّها ستلحق بموعد التّسجيل، ومرّ التّرم.

obeikandl.com

وجاءت النتيجة. وكانت متوقّعة لمن يعرفها من زملائها، فقد كان المركز الأوّل محجوزًا لها لسنوات ثلاث، وهاهي السّنة الرّابعة أيضًا.

لكن رحمة رسبت في مادّتين، وهنا خرست الفرحة في قلب حبيبة، وأسرعت لرحمة أخذتها في حضنها.. مسحت دموعًا قد سقطت على خديها. فانتزعت رحمة نفسها من أمّها وهي تصرخ فيها:

– اتركيني.. اتركيني. لا أريدك، الآن أنتِ سعيدة بتفوقك، فلا عليك ممن رسبت، هنيئًا لك سيدتي، وزّعي شرباتك على الجيران ليفرحوا بك...

بصوت مهزوم: ليتك التي حصلت على المركز الأوّل ولست أنا. واللهِ كانت سعادتي ستكون في كاملها.

لسعتها رحمة بنظرة كاوية.. فاستردّت حبيبة ريقها وثقل قلبها حزنًا، وقالت:

– ليت النّتائج تتبدّل لأعطيك نتيجتي، وأخذت نتيجتك، أتقرّب إليك بشتى الوسائل والحيل، وفي كل مرّة تلفظينني. ألستُ أمك؟! ألستِ ابنتي التي لا أحب أحدًا يفوقني سواها علمًا وجمالًا وحظًّا؟!! لِمَ هذا الحاجز الزجاجيّ الذي وضعته بيني وبينك؟! لِمَ هذا الجليد الذي يغلف علاقتك بي؟!!

قالت رحمة: أمي نعم، لكنّ شيئًا داخلي لا أفهمه ينازعني مشاعري لك!!

– أراك غريمتي في أبي، في إعجاب كلّ من يتحدّث إليك.. وأقرأ في عينيه مقارنة بين فصاحتك ورقتك، وبيني أنا التي أتلعثم ولا أستطيع أن أكمل جملة واحدة.

وران عليهما صمت، ثم قالت حبيبة وهي تجيل بصرها في المكان:

– هذا البيت الكبير لا غريمة فيه، هذا البيت ليس فيه إلا خادمة ويا ليتها تعجب أحدًا، أنتِ تنظرين إليّ بعيني جدّتك وأبيك، أنا الفقيرة المنحدرة من أقلّ الأسر حسبًا ونسبًا. لا حقّ لي في رفاهيتهم ولا تعليمهم ولا حياتهم، ولا يصح أن أتفوق؛ فالفقراء لا يتفوقون، ولِمَ لا؟ أليسوا فقراء؟! أمّا إعجاب الناس خارج هذه الفيلا بي.

بدأت هذه الكلمات تعيد الحبل السريّ بينهما. انتبهت "رحمة" لما سيأتي من كلام. إعجابهم بي لأنّهم رأوني حبيبة الإنسانة الشّاعرة البليغة، وأنساهم ذلك أصلي وفصلي الذي لم يُنسَ لديكم أبدًا!! ومع كل هذا لا يسعدني إلا نظرة ضاحكة من عينيك وأخويك، ولا يرضيني إلا قبلة أضعها فوق جبينك الوضاء.

مدّت حبيبة يدها لرحمة تقرّبها إليها، فنفرت عنها لما سمعت صوت أبيها قادمًا وهرولت ملقية بنفسها في أحضانه.

obeikandl.com

كارت شحن حضرتك؟

طارت نغمات أغنية حليم من مسجل سيارتنا فراشات ملونة تتماوج مع هواء الكورنيش ويداعبها صوتي:" أبني لك قصر عالي، وأخطف نجم الليالي وأشغل لك عقد غالي يضوي لأحلى الصبايا، أنا الهوى هوايا هوايا".. وكلما همّ زوجي؛ ليشاركني الغناء أوقفته، أريد أن ينفرد صوتي يصدح بأعلى حسه، لماذا يحلو صوتي وينجلي هنا بينما يختنق ويتحشرج هناك؟ لماذا أدخر كل ضحكاتي وأغنياتي وجنوني حتى آتي فأنفق منها بسرف دون أن أحسب حساب نفاد ما جمعت، ألأني سأعود لأدخر مرة أخرى؟ ثلاث ليالٍ بيومين نقتنصهم كل شهر، لكن أجملها ما كان في الشتاء.

الإسكندرية في الشتاء لعشاقها فقط، أما في الصيف فلا ترد سائلًا. وقفنا أمام العمارة التي تعودنا السكن فيها، تناول زوجي المفتاح من البواب فأخبره بأنه بمجرد أن أغلق معه الهاتف قام بتنظيفها جيدًا وإعدادها لاستقبالنا، اكتشفت اليوم فقط أن البواب الذي مرت سنوات طوال نتعامل فيها معه قبطي، حينما نادى على ابنته أنجيل لتأتينا بالمفتاح، لاحظ دهشتي

فقال: آه نحن قبط. ضحكتُ وقلت: يجمعنا الوطن وتذوب الفروق إذا وجدت "وأشرتُ بيدي تجاه البحر" مع ملح هذا البحر.

صعدنا لشقتنا لنبدأ أول فقرات برنامج رحلتنا الشهرية، قسط الراحة ثم وجبة الغذاء فالجلوس في الشرفة لاحتساء شاي الخامسة بينما نملأ أعيننا من البحر ونردد الكلمات نفسها عن البحر وسطوته شتاء وهدوئه صيفًا، ثم أطلب منه المطلب العتيق: حسن! هل يمكن أن ننتقل للعيش هنا؟.

أريد أن أقضي بقية عمري هنا على شاطئ هذا البحر فيأتيني الردّ نفسه بالملامح نفسها مع الأسف: وأنا مثلك أتمنى لكن بيتنا وعملنا وأهلنا!.. هل نستطيع أن ننشئ كل ذلك هنا؟ أصمت لكن الأمنية لا تصمت. يأتي المساء. أرتدي أجمل ثيابي التي لا ألبسها إلا هنا فقط، أتأبط ذراع زوجي وننزل حيث "سندباد البحر "مقهانا المفضل، أشياء كثيرة جدًّا جذبتنا إليه موقع رائع على البحر، رقي العاملين فيه ومودتهم، مجرد أن تلوح لهم من بعيد يستقبلونك كأن دولة رئيس الوزارء قد حل ضيفًا عليهم، وهذا يشعرنا برفاهية تحتاجها النفس أحيانًا، ديكوراته تعيدني إلى ليالي "شهرزاد" مغارات كهوف نافورات مياه، وكأن سقفه سحب زرقاء بارزة، تكثر به الممرات والدهاليز تؤدي إلى صالات تتسع، ثم تضيق لا تحمل هم مكان انتظار سيارتك؛ فهناك من يقوم بالمهمة بدلًا منك، جلسنا في ركننا

المفضل بجانب تمساح البحر المحنط وقبالة البحر نستنشق الهواء طازجًا حيث أتابع كرنفال الألوان والأزياء والفنانين المتجولين، وبدأت بالساحر، وقد أخرج الحمامة من المنديل كما يفعل كل مرة ومع ذلك لا أملّ، بسط قبعته ومرّ بها على الجالسين ليأخذ تقديره، عملات معدنية أو ورقية كلّ حسب ما يجود به، وتلاه لاعب الأكروبات الذي يرجف قلبي لابنته كل مرة، وهي واقفة فوق رأسه وهو يسير بها فاردًا ذراعيه، لكنه يستعمل وسيلة أخرى لتلقي التقدير فيفرد منديله، ويتلقى ما يسمح به رواد المقهى، لكن أين العجوز بوجهه الأبيض الملائكي؟

افتقدته المرة السابقة وها هي الليلة الأولى قاربت على الانتهاء ولم يمر علينا هاتفًا بصوته الطيب المتفائل "كارت شحن حضرتك.. كارت شحن؟" حتى وإن لم ينتهِ رصيدي، أُصرّ على الشراء منه، له بسمة حانية تجعلك لا تستطيع أن ترده، لكن الليلة جاءني خاطر أنه ربما..لكن هززت رأسي رافضة، لا بل ربما أصاب إحدى بناته مكروه فانشغل بها، فهو لا يفتأ يذكرهن بنشوة وفخر، كيف قطع معهن الشوط لآخره حتى حصلن الثلاث على شهاداتهن الجامعية حتى بعد أن بلغ سن المعاش من وظيفته المحترمة في إحدى شركات القطاع العام فاضطر لبيع كروت الشحن حتى لا يعملن عند من لا يقدّر كرامتهن، لكن لعله لم يعد يستطيع أن يقطع هذا الكورنيش الطويل ذهابًا وإيابًا عدة مرات كما كان يفعل خاصة أنه في المرة الأخيرة

التي رأيته فيها كانت قدماه وعكازه تتمايل تحته، لاحظ زوجي ترقبي للجهة التي كان يأتي منها فقال: أبشري فقد جاءك الذي تبحثين عنه، وجاء صوته صادحًا "كارت شحن حضرتك.. كارت شحن؟"

اقترب الصوت ثم اقترب صاحب الصوت، هو كما هو بقميصه الفضفاض الطويل وبنطاله الواسع وحقيبته التي جعل يدها الطويلة على كتفه اليمنى، بينما هي تحت ذراعه الشمال ممسكًا بكروت الشحن بيده ناشرًا ابتسامته الحنون الراقية على الموجودين، فلما رآني أشير إليه من بعيد جاء ووقف أمام طاولتنا محيِّيًا ومسلمًا على زوجي، ومن فرط سعادتي بأني رأيته بعد غياب، قلت له: أين كنت يا عم أحمد قلقت عليك والله؟ وبصوت مفعم بالضحكات قال: تسلمي يا مدام.. أحكي لكم. رجل طيب يأتي هنا مثلكم رآني أتألم بساقي؛ فعرض عليّ أن يجري لي عملية تغيير المفصل على نفقته، لكني رفضت مرارًا، اندهشت وقلت: ولماذا ترفض يا عم أحمد وأنت تحتاجها؟ قال بحياء طفولي جميل: تكاليفها باهظة يا مدام، كيف أحمله كل هذه الآلاف؟ لكنه لم يمل، فكلما جاء من القاهرة أعاد عرضه، ومنذ شهرين وضعني أمام الأمر الواقع، وحجز لي المستشفى، وكلم الطبيب واتصل بي كي أحضر لتجرى لي الأشّعة والتحاليل، فلم يكن هناك بدٌّ من الاستجابة لهذا الكريم، مكثت شهرًا في الفراش لا أغادره إلا منذ يومين. قلت له: حمدًا لله على سلامتك

سيظل أهل الخير يدهشوننا دائمًا. قال له زوجي وهو يداعب عكازه: متى ستستغني عن هذا العكاز؟ مصرّ أن يجري لي العملية في الساق الأخرى، لكني قلت له الحمد لله فلتحمل الساق السليمة أختها المتعبة.

بوجه ملؤه العجب قلت: لمَ؟.. لا. لا ترفض. أغمض عينيه حياء وقال: يا مدام، إن كان حبيبك عسل! ومضى ملبيًا نداء المنضدة المجاورة وهو يهتف "كارت شحن حضرتك.. كارت شحن".

obeikandl.com

موعد في الميدان

في الميدان الواسع بوسط القاهرة والنّاس كالموج تغدو وتروح..

وقفت تتفرس في الوجوه؛ لعلها تجده بينهم..

وتراوح عينيها بين الصيدلية ووجوه المارة مرة أخرى..

هو من ضرب لها الموعد في هذا المكان..

لِمَ تأخر؟! ثم هي لا تدري كيف انشقّت الأرض عنه فجأة ووجدته أمامها؟!

ما هذا الجلباب الأبيض وذاك العكاز؟! بادرها: هيَّا هيَّا يا آنسة، بنظرة تملؤها الدهشة: حضرتك الأستاذ صالح طه؟!

بصوت جاد يؤكد: نعم، أنا هو.

أهلًا بك في القاهرة، ما الذي أخرك كل هذا؟! لي نصف ساعة أنتظر.

وأنا أيضًا وقفت أتفرّس في الوجوه علِّي أجدك.

هيّا معي إلى المقهى القريب.

سارت معه وهي تحاول أن تهضم اندهاشها، لكن لا.. لا. كيف؟!

الملامح هي الملامح، لكن الفرق بين صورته على عموده في المجلّة، وبين هذا الذي يمشي بخطوات متطوّحة ما يقرب من عشرين عامًا.

obeikandl.com

يا لهؤلاء الكُتَّاب الذين يدلِّسون على قُرَّائهم ويريدون أن يحتفظوا لأنفسهم بنفس صورتهم وهم شباب فلا يشيخون أبدًا حتى بروفايلاتهم [صفحاتهم] على شبكة التواصل يتخذون نفس النهج مثل صاحبنا هذا الذي تناثرت تجاعيده وتداعى بدنه، أين بذلته الفخمة من هذه الملابس الرثة؟!

وباغتته بهذا السؤال: أراكَ خرجتَ على المعاش، هل مازلتَ على علاقتك بمجلس التحرير، أستاذ صالح؟

وقد تلاحقت أنفاسه من المشي قال: طبعًا. لا تقلقي، ستعملين في المجلّة حتمًا؛ فمجلس التحرير تلامذتي.

وركَّز عكَّازه على الأرض لينزل من على الرصيف فانثنت قدمه، ومال واقعًا..

وبسرعة مدَّت يدها لتقيمه، فأسند يده على عكَّازه، واعتمد بالأخرى على يدها، فقام وهو يزوم تتقارب أجفانه، ويتلاحق حاجباه العريضان: لمْ تعد البلديَّة تقوم بنظافة الشوارع، لقد امتلأت بالحصى والأذى!

بنظرة سخريّة متنكّرة في ابتسامة رثاء: فعلًا، لا أحد يقوم بعمله كما يجب. وألقت نظرة على الشارع فوجدته مغسولًا لا أثر للحصى فيه.

ومشى وقدماه تتراقص مع عكازه، وأشار بيده قائلًا: ها هو المقهى على بعد خطوات.

نظرت حيث إشارته فوجدتها حارة جانبيّة متفرّعة من الميدان على بعد خطوات من المقهى.

بنظرة (بانوراميّة) على رواده فإذا كلهم من أصحاب المعاشات وكأنّه عاد لبيته،

وبحميمية رفع يده محييًا الجالسين؛ فغمغموا يردون التحية.

جلست، وجلس وعيناه تتباهى: أرأيتم تلك الشّابة المتفجّرة بالأنوثة تجالسني أنا دونكم؟!

جئتكم بنغمة صاخبة لتدبّ الرّوح في معزوفة أبطأ بها هدوء الشيخوخة. جالت بنظرها في المكان.. بارد.. رطب.. ساكن إلا من صوت أم كلثوم آتٍ من المذياع: [جدِّدت حبّك ليه]؟!

لا تعرف لماذا تراجع مؤشّر أحلامها حينما رأت هذا الجمع السبعيني والثمانيني؟!

سألها برقّة شاب في العشرين: أطلب لكِ إفطارًا؟ رفضت بحسم.. يلحُّ عليها.. تستمر في الرّفض حتى استحيت وقالت: شايًا وكفى.

ابتسم عن طاقم نضيد، وقال: لا، سيكون غداء بعد قليل، وأشار إلى مطعم لم يكن حاله بأفضل من هذه المقهى، وبضحكة ذابلة قالت: لا. لا، شكرًا.

سأشرب الشَّاي، ونذهب للمجلّة. حاضر، حاضر، سنذهب، لكن اجلسي قليلًا؛ لأعرفك أكثر، وأعرف إمكاناتك، وأطّلع على أرشيفك، وأحدّثك عن نفسي.. فأنا وحيد ماتت زوجتي، وتزوج أبنائي، جالت دوائر القلق في رأسها.. ألم يحدثني في التليفون أنّ له زوجة وأنّها مُدرّسة؟!

سألها: ما اسمك؟ ومن أين؟ حدّثت نفسّها...، صُدِمت في صورته، وصُدم مرة أخرى في ذاكرته التي اعتراها [الزهايمر]!

قالت: لقد سألتني الأسئلة نفسها قبل أن آتي إلى القاهرة، وفي طريقنا للمقهى، وعرّفتك بنفسي وبمقالاتي في التليفون!

مضغ كلماتها، وقال: لكن عيونك حلوة جدًّا!

بقرف قالت: لا تُسمعني هذا الكلام.

حق الجمال علينا ونحن في حضوره أن نقدم له التحيّة!

صمتت لتعرف أين آخره، اتركيني أعترف لك أنّك جميلة، وفي غاية الرِّقة والشِّياكة،

والجلوس معك متعة فائقة. همّت بالقيام، فاستحلفها أن تبقى على ألا يعود لهذه العبارات، ونقل الحديث إلى نفوذه الواسع وكيف عين من قبلها مذيعات وصحفيين.!!

بنظرة مترددة قالت: لكنّك خرجت على المعاش!

يراوغ ويقول: الصحفيّ لا يخرج معاشًا؛ فمازالت علاقتي بهم طيّبة، ولا يردون لي طلبًا.

عيون المسنين زملاؤه تلاحق منضدتهم بشغف جشع لمعرفة ما جمع بين بزوغ الفجر وشفق الغروب!!

لاحظ سرعة دوران القلق في عينيها فقال: سأتصل الآن برئيس التّحرير لأعلمه بقدومنا إليه، هدأت قليلًا، وأسندت ظهرها للمقعد تستمتع باللحظة التي تقرّبها من فردوس أحلامها كصحفيّة في مجلّة مطبوعة لا نسخة إلكترونيّة، وأن يصبح قلمها حقيقيًّا لا افتراضيًّا.

لها سنوات تكتب إلكترونيًّا. وقد آن لها أن تخرج من الفضاء الأزرق إلى صالات التّحرير حيث صرير الأقلام.

أنهى المكالمة بشكر رئيس التحرير على سعة صدره، وقبول وساطته لها بالتعيين في المجلّة.

قفزت من مقعدها، أستردّ صوتها حماسته: هيّا، أستاذي حتى لا نتأخر عن موعد رئيس التحرير. هتف تليفونها، فتحت لتردّ، وجدت المتّصل صالح طه وبنظرة مذهول قالت له: من أنت؟!

وقبل أن يردّ جاءها صوت التليفون: أين أنتِ يا سلمى؟

– أنا هنا منذ ساعة بجوار الصيدليّة، أنتظرك.

قرعت قلبَها مطرقةُ الخوف.. جمعت حاجاتها.. انطلقت كسهم يشقّ الفضاء تتبعها كلمات العجوز المتهالك.

- اجلسي معي أكلمك عن وحدتي، لا أريد إلا أن تسمعيني.

لا أريد إلا أن تسمعيني.

obeikandl.com

ولم يعد يأتي الربيع

غازلت نسمات الربيع الوليدة ستارة غرفة النوم...

تخلل ضوء الشمس خطوط الشيش، فنزلت متوازية مضيئة على السجادة، وصعدت لتكمل إضاءتها على الفراش.

ابتسمت رويدًا لرفيف النسيم على الستارة، وهفت نفسها لمتعة تمارسها في هذا الوقت من كل عام.

انسلّت من السرير، وأغلقت الباب بهدوء حتى لا يستيقظ عماد؛ فهناك الكثير الذي يجب أن تفرغ منه قبل أن يصحو ويدس أنفه في كلّ شيء، لكن وقبل أن تبدأ إعداد ترتيبات الرحلة عليها أن تأخذ حقّها منه.

فتحت ضلفتي الشرفة.. غزت الشمس كلّ أركان الصالة.. وقفت رويدًا ممسكة بالباب، وفتحت أنفها للهواء البكر.

ملأت رئتيها.. أخرجته زفيرًا، ظلّت هكذا تملأ به رئتيها، وتخرجه زفرات حرّى وهي تبتسم منتشية محدثة نفسها: لا أعرف متى بدأت معي هذه المتعة؟! لكني وجدت نفسي منذ طفولتي.

ما إن يبدأ الربيع حتى أعدّ نفسي لمقابلته في الشّرفة صباح كل يوم،

obeikandl.com

فنسماته تختلف رائحتها في أنفي عن أيّة نسمة لأي فصل آخر. ثلاثية عجيبة: عبير الزهور، مختلط بندى بكارة الصباح، مذهبة بنور الشمس.. آه الشمس!! تلك التي توزع الآن صفرتها وإشراقها بسخاء على الكون كله!!

سحبت المقعد، وجلست بعد أنّ شعرت أن دماءها تتجدد، وأنّ شيئًا ما يسري في خلاياها فيطربها، ويربيها، فتزهو بشرتها الوردية أكثر "إمممممم الوردية"!! هكذا يقال لها دائمًا من صديقتها ندى: أرى الربيع في وجهك قبل أن أراه في الزهور.

أخبريني ما السّر الذي بينك وبينه؟! تضحك عيناها وتجيب: أحببته من لطفه فأفاض عليّ بلونه الوردي.

ألم تسمعي عن النساء المتوردات؟!

تندهش مصدقة، وتهزّ رأسها نافية، تجيبها بنظرة حالمة: إنهنّ عاشقات الربيع، الناظرات إياه ليس في الفصول، ولكن في كلّ شيء به حياة، في قلوبهن دائمًا خضرة لا تجف فاختصهن دون غيرهن من النّساء. فهنّ عذارى الربيع، وإن كنّ متزوجات. من جنس الفرح خلقن.. تصمت ندى ولا تعلق.

تنبهت أنّها تأخرت عن مهامها، فنزعت نفسها من مقعدها، وقامت ففتحت النوافذ، وضغطت زر التلفاز؛ فانطلق صوت سعاد حسني صادحًا: "الدنيا ربيع والجو بديع". ذهبت لحجرة البنتين؛ لتوقظهما، فوجدتهما

قد انتهيا من صلاتهما، وتغنيان للربيع، وبسعادة تخرجان ملابسهما من الخزانة، وتصفانها على السرير لارتدائها.

وبدأ عماد طقوسه اليوميّة الطويلة بداية من دورة المياه، ثم الجلوس أمام التلفاز الذي مهما كانت حاجته للحاق بمواعيده إلا إنّه لا يترك فقرته المعتادة أمامه!!

تحاول أن تذكّره بموعده مرّة بعد مرّة، يزوم ثم يرمقها بنظرة جلاد. وفي الأخير ينفجر فيها غاضبًا، حتى تركته يفعل ما يشاء ويقوم متى شاء.

تعرف أنّه عصبيّ جدًّا، لكن ما يدهشها أنّه لا يترك مناسبة أو تجمعًا عائليًّا أو مقربين منهما إلا مدحها بإسراف.

لكن أبدًا ليس أمامها. دائمًا يتحين انشغالها أو ابتعادها عن مجلسه ويبدأ وصلة مدحه. لا تعرف ما يقول إلا من عبارات الحسد التي تسمعها من قريباتها، أو صديقاتها، أو زميلاتها: ما أسعدك بزوجك!! ما هذا الشِّعر الذي يقوله فيك؟! ليت أزواجنا يتعلمون منه كيف تكون معاملة الزوجة!.

تسمع ولا تعلّق، لكن هناك في ركن ما من نفسها تتمنى لو تسمعها منه. من فمه لأذنها مباشرة دون وسيط أو ناقل، تنبهت على صوت "لمى وسما" تهتفان بها: انتهينا من لبسنا ولم يبق إلا أنتِ!!! رفعت رأسها لهما، وغمرتهما بنظرة مطمئنة لذيذة وهي ترى حرصهما على اكتمال أناقتهما وحليهما رغم

صغر سنهما. فلم تنهيا المرحلة الابتدائية بعد، إلا أنّ اهتمامهما بأناقتهما قد سرى منها إليهما، فجاءتا على صورتها في تغذيتهما لأنوثتهما بكل جميل. أسرعت لملابسها، وحملت حقائبهن، وسبقهن عماد للسيارة، وفي السيارة لم تكف سما ولمى عن استعراض خططهما للاستمتاع بهذا اليوم الربيعيّ.

وقفت السيارة أمام القرية السياحيّة، وقد توافد عليها عشرات الأسر مثلهم جاء بهم شمّ النسيم؛ حيث الماء والخضرة والهواء المكتنز بكل روائح الطبيعة النقيّة.

وكانت فقرة البنتين الأولى البحر، نزلتا وهما تصرخان فيه:"ها قد عدنا يا بحر"، تعبثان بالموج ويداعبهما.

وعلى الشاطئ أنا وعماد نتابعهما خشية أن يبتعدا عن أعيننا.

ومن وقت لآخر أناوله بعض المسليّات، ونتبادل التعليقات على الجو والبنتين والناس حولنا.

سرح بيَ البحر، وتهت في موجه؛ فوجدتني أقول لعماد ضاحكة: ألن تسمعني بعضًا من عباراتك الجميلة التي تقولها عني في غيابي؟!، وأردفت: هاهو يا حبيبي الماء، وهاهي الخضرة. وأشرت للأشجار والزهور حولنا، ثم أومأت بوجهي، وقلت: وهذا هو الوجه الحسن. وضحكت، فقال: وهو ينظر لحبات الفول السوداني في يده: لسنا صغارًا لتطلبي هذا، اكبري،

وانسي هذه الأشياء فأوانها قد فات!!، لكني أتمنى أن أسمعها منك ولو مرة واحدة. منك أنت، لا من ناقل أو حاسد!

لماذا تسخو بها في غيابي، وتضن عليّ بها في حضوري؟! ضحك ساخرًا، وقال: ألا يكفيك أنّي أعلمت الدنيا كلّها أنّك زوجة لا ند لها؟!

– لكن نفسي تهفو إلى أن تسمعها منك، منك أنت.

التقط حبة السوداني، ومضغها، وسحب دخان سيجارته ومعها كلماتي الحارّة اللاهبة، وأخرجهما دخانًا.

اغتصبت ابتسامة مهيضة هززت بها رأسي، ولكن لا أعلم لِم ثقل قلبي بالحزن وصّمت؟! وأغرقت نظراتي في البحر أهرب بها منه وأحدث نفسي"ما أبعد السعادة عن زوجين بطبيعتين مختلفتين!"

كسا الثلج علاقتنا من زمن بعيد. هي أيام الزواج الأولى فقط، فلما انتهت انتهى معها معنى الزواج في نفسي وإن بدت لمن حولنا دافئة!! قد يمر شهر ولا يذكر أن يقبلني! وإن فعلها فهو كالمحسن الذي يتصدق على فقير منكسر، فكرهتها. ولم أعد أذكِّره. في البداية كنت معجبة بصمته، اعتقدته رزانة وحكمة... مع الأيام وضح أنّه برود وشح مشاعر!!!

بدأت أفهم ثناءه العجيب عليّ، نوع من الزهو والفخر، فكما يفخر بنفسه كطبيب متميز وبنوع سيارته الغالي، وبابنتيه المتفوقتين، كذلك يفخر بزوجة لم يحزها أحد.

obeikandi.com

تلقفت البنتين بالبشاكير، والطعام بعد أن شبعتا من البحر، وجاء دور "الساحر"، فذهبت معهما، وتركت عماد على البحر.

ضحكت لضحكهما، وتمايلهما على بعضهما، سعدت بصوت الأراجوز، لمحت صديقة لي على المنضدة النائية هناك في ركن الحديقة، أشارت لي، ذهبت أسلّم عليها.. تبادلنا بعض الكلمات، عدت فلم أجد لمى الصغيرة في مقعدها، سألت سما: أين لمى؟ بنظرة مدهوشة قالت: لا أعرف كانت هنا. ارتعبت، نظرت حولي.. مسحت الحديقة بعينيّ، قطعت المكان كله ذهابًا وإيابًا بحثًا عنها، ودموعي تهطل من عيني، ولكني عدت من بحثي بأصابع منقبضة، اتصلت بعماد، جاءني مسرعًا. تجمع النّاس حولنا يهدئونني، ويشيرون علينا أن نبحث هنا أو هناك، وكلما زاد عدد الناس حولي؛ انتابني شعور أنّني لن أراها ثانية؛ فتنهار قواي، ويزداد نحيبي.

سألني عماد وهو يحدّق فيّ بعيون لا ترمش: ألم تكوني معهما؟! كيف ضاعت وأنت معها؟!

بصوت متلجلج: ذهبت أسلِّم على صديقتي، وعدت فلم أجدها.

بصفعة صوتية: وهل جلست معهما كخيال مآتة؟!!

ثم تلتها صفعة أخرى على وجهي برقت لها عيناي، ودارت رأسي؛ فوقعت على الأرض. كانت عبارات النّاس وهم ينهرونه لصفعي كأنّها سياط تجلدني.

أنا الخادمة التي تهاونت في رعاية مخدومتها، فجاء سيدها وأدّبها على الملأ دون مراعاة لوزن أو كرامة! تمنيت ساعتها أن تأتي حاسداتي وينظرن لي بعد أن جعلني عماد فرجة للعيون الرائية!!، وإن هي إلا دقائق وجاء بها أحدهم بعد أن أعلن مذيع القرية عن غيابها. جاءت بريئة ساذجة لا تدري ما أحدثه غيابها بي.

– لمحت دمية سبونش والأطفال خلفها فتبعتها لأسلّم عليها. هكذا أجابت أباها وهو يسألها أين كنتِ؟ ولم يشفع لعماد اعتذاره لي عن صفعته الجماهيرية، فقد تحصن قلبي في غرفة من حديد يصعب أن ينفذ منها أي اعتذار.

obeikandl.com

الغرف المعتمة

تأمّلتها.. كسرات رقيقة على جانبي العينين.. بعض التجاعيد الدقيقة بدأت تحاصر الفمّ.. قناتان عميقتان أسفل الخدّين.

مسحت على لمتها المنسدلة وهي تخاطبها:" تبًّا لكِ أيُّتها المرآة. وددت لو حطّمتك، أهذه أنا؟! لم يتبقَّ لي من جمال آسر إلا ذلك اللّون الخمريّ؟! كدّرت بشاشته تلك التجاعيد اللعين "سبحت عيناها في مرآتها.. أبحرت بعمق ثلاثة وعشرين عامًا لحظة أن دخلت هذا البيت فتاة مشرقة ضاحكة سكرى من فرط أنوثتها. سنوات عاشتني ولم أعشها، كيف مرّت بي؟!! ما أضافت لي سوى هذه الكسرات وتلك الخطوط.

بضحكة ساخرة وهي تهزّ رأسها:" بأي إنجاز سأحتفل غدًا؟! لم أحقق في حياتي أيّ إنجاز سوى إنجاب ابنتي.

دُرت في دروبه.. واستغرقتني حاراته وعطفاته فلم أعي لنفسي وأعمل عليها لأرتقي بها، ونسيت حتى ما تعلمته في الجامعة، وكأني فقدت الذّاكرة كلّ هذه المدّة. ولمّا استردتها وجدت في مرآتي امرأة لا أعرفها. عابسة.. تقطيبة جبينها غائرة جدًّا!! كأنّ بينها وبين الضّحك خصام طويل. سنوات ما أدري كيف مرّت؟ لا، بل كيف سُرقت؟!

خفيف اليد هذا اللّص؛ لم أشعر بيده أبدًا وهي تعمل إلا وأنا أتحسّس وجهي الآن.. وهل كان لي خيار أن أحيا كما أريد؟! كانت لي أحلام عريضة ذُبحت كلّها على عتبة هذا البيت. عرفت هنا نوعًا من الحزن المركّب. رُبمّا وحدي التي اكتشفته.

أن تحرم من الحزن لنفسك، أن تحبس دموعك في عينيك فلا تواسيها وترحمها فتذرفها. بل تدعها حتى تجمد على مرآة عينيك؛ لأنّه لا يجب أن يراك وأنت متلبس بالحزن عليها، فلا اهتمام إلا به وبمشاعره، ولا حزن إلا حزنه.

حينما تزوجته لم يكن هكذا. كان لديه شيء من الحنان والحبّ، شيء من الأنس بالنّاس، ثم ما لبث إلا قليلًا وتغيرت حاله.

انكمش على ذاته وانسحب من الحياة بإرادته، اكتشفت أخيرًا أنّ هذا المكتئب الذي أضاع أحلى سنوات العمر في عتمة الحجرات، حبيس داره، لا أصدقاء ولا أقارب إلا المقربين جدًّا من أهلي وأهله. لا يغادر إلا لعمله ثم يعود لنفس العتمة، هو من سرق عمري، لا أذكر أنّي طالعت وجهه إلا وجدته غارقًا في تفكيره الحزين. ظننته في البداية هدوءًا، لكن تأكّد لي أنّه عدم اكتراث.

كآبة خيّمت على منزلنا ولم تنقشع إلى الآن كثيرًا. ما تمنّيت أن أرزق بفرحة لكنّها لم تولد لي أبدًا. حاولت كثيرًا أن أخرجه من تلك العتمة، لكنّي دائمًا أعود من محاولاتي هذه يائسة من الأمل. كم راودني ذلك الحلم طويلًا؟! أن أخرج معه متأبطة ذراعه مزهوة بسيري بجانبه، وقصصت عليه حلمي هذا ما فتح شفتيه بكلمة. من لحظة خروجي معه أوّل مرّة وأنا ألهث

خلفه حتى تقطّعت أنفاسي. تبدّدت كلّ أحلامي، وتنازلت عن أشياء كثيرة كانت تسعدني، لكن بقيت عادة وحيدة، واظبت عليها وإن تغيّر أسلوبي في ممارستها. هو احتفالي كلّ عام بيوم مولدي، ولكن بطقوسه هو فلا ضجيج ولا أصدقاء. نلتف حول التورتة. نطفئ الشموع.. ونوزّع الأطباق وأحاديث هامسة بيني وبين أمي وأخوتي حتى مللت رتابته هو الآخر ولم يعد يسعدني؛ لذلك لن أحتفل غدًا بهذه المناسبة. وسألغي طلبي لتورتة عيد الميلاد. والآن سأتصل بزوجي وابنتي لأعلمهما برغبتي في عدم الاحتفال هذا العام، لكن كيف سأبرّر لهما هذا؟!

ضغطت أزرار التليفون. رماديًّا خرج صوته: وعليكم السّلام.

بتردّد:... لن أقيم هذا العام حفل عيد الميلاد.

- لكِ ما تريدين.

قالت وغيمة الدّمع تنهل من عينيها: لم تسألني لماذا؟!

وهو من الضّيق في غاية: لماذا؟

- كيف لمسروق أن يحتفل بموعد سرقته كلّ عام؟

- لم أفهم. أنتِ حرّة. تحتفلين، أو لا تحتفلين، هي مناسبتك لا تشغليني بألغازك.

بنبرة متقهقرة: أتّصل حتى تحتفظ لي بثمن الهدية؛ فأنا أريد ثمنها لأمر آخر.

سلّمت وأغلقت. عادت للمرآة تمرّر أصبعها على الكسرات في وجهها وهي تقول: "وهل هناك من يصلح هذا الوجه المتهدم، ويعيد لهذا الجلد اليابس ماء الحياة فيربو ويورق؟!!

أشرقت في ذهنها فكرة.. وما المانع من الذهاب لجرّاح التّجميل ليعيد سنوات العمر التي سرقت!

obeikandl.com

بلقيس

استيقظ من نومه مبتسمًا، فمازال يستشعر دفئها ويغمره سحرها، جلس نصف جلسة أسند رأسه لقائم السرير، يقطف من حلمه الجميل وعند قطفة لذيذة قال: ماذا تريدين مني يا بلقيس؟ كأن شمسًا طلعت من بين الأمواج أضاءت عتمة عمري، كان عناقًا رطبًا حانيًا صحوت فلم أجدك بين يدي. عدت مرة أخرى تسبحين وتركتني؟

وقعت عينه على المنبه، قام مسرعًا ليلحق بعمله، تتراءى له يتابعها. رفع صوت المذياع ففاتنته ستشغله عن الطريق بتثنيها المغري، ألقى السلام على زملائه، لمح من بعيد امرأة ذات قوام سمهري. اقترب فالتفتت للقادم، نظرة واحدة لوجهها أدخلته مرة أخرى لنفس الأجواء التي استيقظ منها، أفاق على صوتها تسأله: حضرتك الأستاذ زياد مدير المؤسسة؟

صمت ليسمع هذا الصوت مرة أخرى، أعادت السؤال، قال لنفسه" هو صوتها بنغماته الطروب".

- نعم أنا هو سيدتي.

obeikandl.com

أشار لها لتدخل وقرب لها المقعد، ترك مكتبه وجلس قبالتها، لم يصدق "تركتها تسبح بلباس البحر" هل تبعتني إلى هنا أيضًا؟ تطورت حالتي فصرت أهذي بحلمي في يقظتي! ماذا لو دخل عليّ أحدهم ووجدني أحدث نفسي؟

لاحظت صمته وسرحانه، فقالت وهي تخرج من حقيبتها ورقة: أستاذ زياد، هذا خطاب نقلي إلى مؤسستكم، أرجو أن تعتمده.

قربته من يده، أمسكه وهو يحدث نفسه" ليس حلمًا إذًا، فهذه الورقة مستند على ذلك، إذًا وجدت بلقيس أخيرًا.

بضحكة مشرقة رحب بها قائلًا: أهلا بك أستاذة بلقيس. هز رأسه مستدركًا.. آسف أستاذة رضوى، أنت إضافة للمؤسسة. ماذا تشربين؟

لا..لا..لا شيء أشكرك.

دخل الساعي، فقال له: أحضر كل ما عندك من مشروبات الآن.

ضحكت مندهشة وقالت: لم كل هذا؟ يكفي كوب من الشاي.

ظل يتحايل لعينيها طويلًا، ويقارنها بأنثى أحلامه، لم تختلف عنها في تقسيمة واحدة كلها هي أسطورة أحلامي، نفس الجمال الملكي السامي، تام الحسن، حتى جلستها جلسة ملكات. كلما رشفت رشفة من الفنجان

obeikandl.com

تشرب منها بعينيه، استبطأت توقيعه، أحس بتململها فأسرع ووقعه، ناولها الإقرار، وهو يقول: سعدت بوجودك يا بلقيس!.

ضحكت مستغربة الاسم، أما هو فلم يستغرب ضحكتها المموسقة، تطرب ليله دائمًا هذه الضحكة، مضت تتبعها عيناه حتى غابت، ولم يكن عاديًّا أبدًا أن يلتقي بلقيس بعد كل هذه السنوات ويتركها، فخلق الحجج والمبررات ليكون قريبًا منها دائمًا، لم تبتلع هذا الاقتراب ولا ارتاحت له أبدًا. فاهتمامه بها لفت انتباه زملائها، ما إن يدخل المكتب حتى تحاصرها الأعين، ثم ما هذا الاسم الذي يصر على مناداتي به؟ ومن هي بلقيس تلك؟ هل هي زوجته توفيت ويرى فيّ شبهًا منها؟، أم حبيبة فارقته ومازال يحتفظ بملامحها في عينيه، صممت أن تفاتحه في كل تلك المؤرقات.

بينما كانت تنهي بعض الأوراق في مكتبه، وهي تهم بالانصراف ناداها: بلقيس، انتظري، أريد أن أتحدث معك.

قالت باعتزاز: أنا اسمي رضوى، لست بلقيس.

وضع عشقه كله في عينيه، وهو يقول: أعرف. وأعرف أنك تتعجبين من مناداتي لك بهذا الاسم، وقد لا تصدقيني لو قلت لك أني أعرفك جيدًا، وأحفظ ملامحك هذه قبل أن أراك. حينما جئت هنا لأول مرة كنت قد رأيتك قبلها ألف مرة.

رفعت حاجبيها باندهاش، وقالت: لقد زدت الأمر تعقيدًا وألغازًا.

– وستزيد حيرتك لو أخبرتك أني كنت أنتظرك، وعندي ثقة أنك ستأتين يومًا ما. حتى صار انتظارك متعة لي وطقسًا من طقوس قليلة تسعدني.

بصوت هامس كسول قالت: كل هذا الانتظار لي أنا، أسطورة لشاب مثلك! بيني وبينك فارق عمر كبير!.

– أمَّا أنا، فأراك عروسًا لم تذهب برونقها الأيام.

– كيف؟ وأنا أرملة وأم لصبيتين!

– لكني أراك بغير العين التي تراني بها.

وهو ينظر لفمها الجميل، يساقط الألفاظ قال: رضوى، دعيني أحبك. دعيني أراك.. أتأملك.

لملمت الأوراق من أمامه وهرولت سريعًا إلى الباب، تحاشت لقاءه بعدها، تدس رأسها في الأوراق في موعد زيارته اليومية للقسم، لاحظ هروبها منه، أتعبه صدها وأبوابها الموصدة، فأرسل لها على هاتفها: سأظل أحبك حتى يشيب شعري وينحني ظهري وتتجعد ملامحي.

توهجت الرقة التي تسكنها، لكن ظل عقلها يرفض هذه المشاعر، لم يدر بخيالي يومًا ما أن أكون أنثى أحلام لشاب في هذه السن، يقترب من

obeikandl.com

الثلاثين بينما أنا في بداية الأربعين، لست من هؤلاء النسوة اللاتي يجدن في هؤلاء الشباب تجديدًا لأعمارهن، لن أدعه يسترسل في مشاعره.

نطق تليفونها بنغمته، وجاء صوته كوشوشات القمح: لم تهربين مني يا بلقيس؟

بصوت نحاسي قالت: لتنجو مني، وأنجو منك.

- هل تظنين أني لا أقاوم يا بلقيس؟

- مصمم أني بلقيس؟.

- هل عندك شك؟ والله أهرب منك هروب الجبناء، وأنا أكره الجبن، مهلًا عليّ يا بلقيس، لا تستعملي قسوتك.

لمستها الكلمات، فقالت: ما فيها لتفتن بها؟

وجاء سؤالها أغنوجة له، فقال: هي صاحبة القصر المرصود، هي عشتار ونفرتيتي، هي بلقيس، هي معي في حلمي كل ليلة، كل ليلة يا بلقيس!

بشغف قالت: كيف تكون؟

أبحث عنك في جنبات الأرض حتى أجدك ودائمًا أراك على موجات البحر أجري إليك فأدثرك بما ألبس. فتنظرين لي، فتشرق شمسك يا رضوى فتدفئني وتهدهدني، وأعانقك بقوة حتى لا تتركيني مرة أخرى.

obeikandl.com

اختلجت مشاعرها، لم تعد تدري ما تقول له، امتلأت نشوة وأحست ألق اللحظات الحلوة، أبت أن تسترسل فيها، صوت عقلها يعلو شيئًا فشيئًا، لن أدعه يسبح في قوارب أحلامه. لن أصد مشاعره اليوم، لكن سيكون أمرًا آخر غدًا.

وفي الصباح كان طلب نقلها على مكتبه ينتظر التوقيع.

obeikandl.com

كلمات

"ومن الكلمات طعنات" نطقتها وكأنها تذرفها. فلم تكن تدري أن كلمة نطقتها ستجر عليها كل تلك المتاعب.

وضعت يدها على قلبها لتوقف نزيف الطعنة التي صوبها لها حالًا، أوشكت على السقوط، أمسكت بطاولة الطعام، ألقت نفسها على أقرب مقعد، أسندت ظهرها وأغمضت عينيها، وتركت سياط الندم تجلدها، وجاء السوط الأول ملهبًا..

أما كان أفضل لو كتمتها داخلي ولم أخبره؟

وتبعه السوط الثاني أشد لهيبًا..

ليتني انسحبت من علاقتي معه بهدوء، وترك كل منا إشراقة في نفس الآخر بدلًا من تبادلنا إطلاق النار.

صمتٌ شهرًا، ما الذي أنطقني الآن؟ لم يكن مرور هذا الشهر سهلًا عليّ، فقد كانت حربًا تدور مابين عقلي وقلبي، أصدق ما يقال وأقطع علاقتي به، أم أخبره ليدافع عن نفسه؟ عاندت في هذا الشهر قلبي، وانقطعت عنه. ما الذي جعله اليوم يهاتفني مهاتفة جعلتني أظهر ما نويت إخفاءه؟ تبًّا لك أيها القلب. مع أول همسة من صوته انطلقت أرشقه بسهام التهم التي مضغتها الألسن.

وجاء هدوءه منذرًا بعاصفة عنيفة، فقال: جمييل. وسمعت لهم وصدقتِ أني أعدد حبيباتي كما أعدد رابطات عنقي!.

صمتُّ ولم أرد.

لكن كان صوته حزينًا وهو يقول لي: بعد كل ما بيننا صدقت فيّ ذلك؟

لكنه أيضًا كان قاسيًا مستبدًّا، كيف يقول لي" أن تخبريني باسم من قال لك، أو تكون هذه آخر مكالمة بيني وبينك"

كيف يضعني في كفة واسم الواشي في كفة؟ شعوري أني وهو على حافة الفراق أرعبني، أن أفكر في الفراق شعور، وأن أكون على شفا الهجر إحساس مرعب لي جدًّا، تقول لي أني " أواليهم عليك" لا والله. ألم تشعر أنك أولى أولوياتي؟

ليتك سكت هنا، ولم تستعمل سكينك الحادة وتغرسها في قلبي طعنة قاتلة "أما وأنك مصممة على عدم ذكر من أخبرك فهو دليل على أنه من تأليفك واختلاقك".

لم يعد لدي ما أعتذر به لنفسي عنك. أحاول أن أجد لك عذرًا في هذه الطعنة فلا أجد. جسمي يرتعد بردًا. أنا التي كانت مشاعري تدثرك، أنتفض رعدة الآن بعد أن كشفت عني دثارك، أتأتي لتعتذر لي!.

لا، لا، حتى لو اعتذرت ألف مرة فلن أقبل منك.

وقامت بخطى متثاقلة إلى شرفتها المطلة على الشارع الرئيسي تغمس عينيها في الزحام، آمرة نفسها بعدم التفكير فيه. دقت رسالة التليفون أسرعت والتقطت التليفون من على المنضدة المقابلة، وتمنت أن ترى ما وجدته أمامها مكتوبًا...

وحشتيني!

فكتبت "أكرهك".

فجاء صوته مهاتفًا: احلفي.

وبصوت أنثوي رقيق: وددت لو فصلت كريات حبك من دمي، أحبك.

- أحبك.

..... وانفجرا ضاحكين

obeikandl.com

صباح الخير أيها الحزن

السّادسة والنّصف، كعادتها تستيقظ كلّ صباح قبل المنبّه، توقظ ابنتيها، تعد الإفطار سريعًا، ارتداء الملابس والنزول، تلحقا بالباص، وتتمشى هي على الأقدام عشر دقائق حتى تصل عملها. تسعدها هذه الخطوات؛ ففيها تتنفس نسمات الصباح البكر، وتغسل بها هموم الحياة. تلقي السّلام على الزميلات، تلقي بنفسها على المقعد. تلتقط أنفاسها، تعطي أذنيها للحوار. تلتقط الخيط لتدخل فيه. كان عن الجوّ الحارّ هذه الأيام.

اجتمعت الآراء على أنّه غير محتمل، سألتهم عن فني متميّز يصلح لها تكيف غرفة النّوم؛ فالجوّ القائظ يمنعها النوم.

أشارت عليها سهيلة بشركة صيانة على ناصية الشارع الخلفي للمؤسسة أمام مطعم المشويّات الشهير. ناولتها رقم التليفون فقد أصلحوا لها تكييفها العام الماضي، ومازال يعمل بكفاءة. لم تتوانى واتصلت. جاءتها الإجابة.. أنه غدًا في الرّابعة مساء سيكون المهندس عندها لتحديد العطل.

سحبت استمارات المرتّبات، وبدأت المراجعة. عرض عليها أحمد أن يساعدها قائلًا: أمامك كمٌّ لا أرى وجهك من خلفه، والعيد على

الأبواب وسيصرف المرتب مبكّرًا، وعلينا أن ننتهي سريعًا من تقديمه لرئيس الحسابات.

هزّت رأسها رافضة، ووضعت عينيها في الاستمارة، وبجانب عينيها لمحت نظرات ماكرة بين سهيلة وسماح. همهمت في نفسها وهي تحوقل:" كنتما من مفردات حظي السّيئ"!!

كعادته قام لإعداد الشّاي. وأخرجن السندوتشات، دار عليهن بالأكواب، أمّا هي فأتحفها بالبسكويت. رفضت متعللة بالريجيم، فقد حذّرها الطبيب قائلًا:" إنّ قطعة بسكويت واحدة مع كوب شاي فيهما من السعرات الحراريّة ما يعادل "طبق محشيّ" كبيرًا".

ضحكت سماح ساخرة وهي تشير للبسكويت في يد أحمد: قطعة بسكويت بهذا الحجم تعادل طبق محشي! دعك من هذا الكلام، وهل هناك أشهى من المحشي!! من اتّبع الريجيم مات محرومًا.

وانفضّ اليوم ككلّ يوم عمل بنفس الوتيرة، عمل، أخبار، نكات، نظرات، تلميحات، وفي الميعاد طرق الباب، فتحت، شاب في الثلاثين من عمره، طويل، أسمر، بعينين واسعتين، شعره أجعد كثيف، عرّفها بنفسه، فأشارت إليه ليدخل حيث التكييف في غرفة النّوم، بدت الغرفة هادئة مرتبة، أضافت لها الستائر الورديّة أجواء رومانسيّة.

قالت وهي تشير للتكييف: كلّ عام لا يعمل إلا إذا أعدت شحنه، وددت لو حدّدت العطل بدقة؛ فقد أنفقت عليه أكثر من ثمنه شحنًا منذ أن اشتريته.

بتأكيد وثقة قال: اطمئني سيدتي، سأعيده لحالة المصنع.

ذهبت لتعدّ الشّاي. أومأت لابنتيها ليخفضا صوت التليفزيون؛ فهناك غريب في الشقّة،

أنزلت النّقاب قليلًا تحت عينيها، لا تعرف لم فعلت ذلك!! جلست ترقبه من بعيد، خرج للشّرفة ليتأكد من حالة الموتور، أطبق شفتيه على السّيجارة ثم رشف رشفة من الشّاي، عاد يهزّ رأسه ويقول: العيب ليس في التّكييف سيّدتي، التيّار في شقتكم ضعيف جدًّا لا يساعده على العمل بكفاءة.

اتّسعت الدّهشة في عينيها، وقالت: كلّ هذه السنوات يشحن والمشكلة في التيار!! لم يقل لي هذا أحد من قبل!

بابتسامة ظفر عريضة قال: الحلّ في ماكينة لتقوية التّيار، وسيعمل بعدها بكفاءة.

بحياء، قالت: ممكن طلب من حضرتك؟

فقال يشجعها: أأمري.

obeikandl.com

– أن تأتي معي وأنا أشتري الماكينة؛ فأنا لا أستطيع التفريق بين الجيّد والرّدِئ.

بصوت حان: حدّدي الموعد، وستجدينني أمامك فورًا.

استأذن وانصرف، جلست على حافّة سريرها تستعرض شريطًا من نتفٍ متفرقةٍ من حياتها المكتنزة بالهموم. ستة شهور فقط كانت فيهم زوجة، كان من ثمرتها توأمها، ثم خمسة عشر عامًا ممرّضة ملازمة لحسن، من غرف الغسيل الكلوي في المستشفيات إلى حجرته هذه، دائمًا رهن أيّة إشارة أو تلميحة منه؛ ففي السنوات الأخيرة اشتدّ عليه المرض فأقعده تمامًا، ينقبض قلبها كلّما تذكّرت الليالي القاسية التي كانا يتعمدان فيها حرق أعصابها وهما يسمعاها صوت عراكهما الصاخب وضحكاتهما التي لا رهبة فيها ولا قداسة.

يؤرقها تحرّك ما أكرهته على السكون، لم يرحما وحدتها وحرمانها، فالشقتان لا يفصل بينهما إلا حائط طويل يقسم الصالتين يمتد حتى غرفتي النوم. لا تزيد المسافة بين نافذتيهما عن نصف متر. لم يكن اللّيل وحده هو القاسي؛ فقد تعمّدا أن يتحينا وجودها على سطح المنزل فيتمازحا حتى يكادا أن يتعانقا، ويهمسان بعبارات تند عن الذوق؛ فتهرب لائذة بغرفتها؛ ففي الجدران حنو يفتقده بعض البشر. كما أنّ لها عيونًا ترى وتحفظ. وأسماعًا تسمع ولا تفشي أسرار امرأة تكتم نداءات الأعماق المطالبة بحقّ الطبيعة.

وحدها هذه الجدران التي تشهد ضجتها المكتومة، هنا تبكي وتصرخ وتسهر وتأرق، فلا تنام إلا بعد أن تسمع نفسها الورد اليومي:" اصبري؛ فلست وحدك، كثيرات مثلك، أين ستذهبين وتتركين هذا المريض؟!! ولو تجرّأت وفعلتِها، هل ستسلمين من ألسنتهم؟

كُتب لكِ ولابنتيك كلّ ما يملك، أتتركينه لأخيه وزوجته اللذين يرقصان على محنتيكما كلّ ليلة؟!

تظلّ هكذا لا تدري متى يغلبها النّوم حتّى تستيقظ في الصّباح.

وجاء الموعد، وحملها في سيارته، وأوكلت إلى النّقاب كتمان سرّ خروجها معه، وفي الطريق عرّفها بنفسه، مهندس، متزوج زواجًا تقليديًّا، لديه طفلان، متوسط الحال، ومن نفس مدينتها.

وجاء سؤاله طبيعيّا: ألم تفكري في الزّواج بعد وفاة زوجك؟

سرحت برهة قبل أن تردّ، ثم قالت: هل تظن أن أية امرأة في ظروفي وعمري لا تفكّر في هذا الأمر؟! طبيعة المرأة كما طبيعة الرّجل يحن كل منهما للآخر، تقدّم لي ما يزيد عن عشرين خاطبًا.

اتّسعت الدّهشة في عينيه، وقال: الرّغبة موجودة. وهناك من تقدّم. فأين العائق؟!

- العائق أهلي!!

- وما أسباب رفضهم؟

بسخرية، قالت: لا أسباب سوى أنّنا لن نسمح لغريب أن يدخل على ابنتيك المراهقتين!!

- وهل بعد أن يتزوّج أمهما سيظل غريبًا؟! سيكون أبًا، وحسن الاختيار سيؤمّن هذا الجانب.

هزّت رأسها ولم ترد، توقّفا أمام المحل، تأملته وهو يساوم البائع ويعصره حتى يوفّر لها بعض المال، وضع الماكينة في السيارة، ركبت بجانبه، سرحت برهة، ابتسمت وهي تحدّث نفسها: "رائعة الحياة في ظلّ رجل".

توالت المكالمات، وتكرّرت اللّقاءات، والتهبت العلاقة، وصعد مؤشّرها، طلبها منها صراحة أو بالأحرى أوصلته لهذه اللحظة، أريد الزّواج منك.

شهقت ضاحكة: مثلك لا يُرفض. صمتت لحظة وقالت: وزوجتك؟ وأهلي من سيقنعهم؟

- زوجتي لن أعلمها، لكن لو شئتِ أتيت لأهلك وبدّدت مخاوفهم من هذا الغريب.

بصوت واهن: ستتحطّم كلّ تبريراتك على صخرة إصرارهما: أبي، أمي. وأعرف سطوة عنادهما.

بحيرة قال: وماذا سنفعل وقد علمت أنّ علاقتي بزوجتي فيها من الروتين أكثر ممّا فيها من الحبّ، ولم أعد أتخيّل حياتي بدونك!!

obeikandl.com

بصوت دافئ كسول: وأنا لم أعرف الحياة إلا معك، كيف أُفهم هذين العجوزين أنّي امرأة إن سجنت غريزتها لخمسة عشر عامًا فليس معناه أنّها ماتت!!.

وانهمرت دموعها، أمسك بالمنديل وجفّفها لها، ربت على كتفها وهو يقول: سيكون ما تحبين. سأظلّ مصرًّا على زواجي منك وإن اضطررنا للعرفي.

اتّسعت بداخلها مساحات الخوف من المجهول.

– وكان ليل، وكان نهار، وفي المساء عزمت على مفاتحتهما في محاولة لإبراء ذمّتها، لو اضطرّت للزّواج العرفيّ. ذهبت لزيارتهما، تحدّثت في كلّ شيء إلا ما جاءت من أجله!!، ثم قامت تعدّ القهوة ليعتدل المزاج ويستمعا لها في هدوء. قدّمت الفنجان لأمّها، وقرّبت مقعدها منها. رشفت رشفة وقالت: أعتقد أنّي أفضل من يعدّ القهوة. أليس كذلك يا أمّي؟

– نعم يا صابرين، لا أشرب فنجانًا مضبوطًا إلا من يدك.

– أريد أن أفاتحكما في أمر وأعرف رأيكما مسبقًا، لكن هذه المرّة لديّ إصرار على أن تباركا زواجي، وتقدِّرا ما عانيته طوال حياتي، تقدّم لي مهندس، وقبل أن تكمل قالت لها: وهي تثبّت نظرها على وجهها: قلنا رأينا من قبل، يا ابنتي نحن لا نقف ضدّ سعادتك، ولكن لا نتهاون في حماية مراهقتين من غريب لا نضمن تصرفاته تجاههما.

– تتحدثين وكأنّي أمّ مفرّطة تتهاون في الحفاظ على ابنتيها!!

- يا ابنتي أنت تعملين، رُبّما جاء وقت جمعتهما الظّروف معه أو إحداهما وأنت في عملك، فهل تضمنين العاقبة؟

- ولو كان زواجنا في شقة منفصلة هل توافقان؟

بوجه صارم التفت إليها والدها قائلًا: تتركينهما، وتذهبين له في شقة لتجمعكما؟! هل فقدّتِ عقلك؟!

أكملت أمُها بعدم اكتراث: ألم أقل لكِ من قبل أنه لا زواج لأرملة، ولا طلاق لزوجة في عائلتنا؟!

وهو ينفخ في سيجارته ويتأمل دخّانها: كيف آمن على مراهقتين وفي البيت رجل غريب؟!

وهنا انفجرت فيهما: ومن خمس سنوات كانتا مراهقتين؟! لم تحرِّمون الحلال؟! كنتم تشفقون علي وأنا زوجة مع إيقاف التنفيذ وتواسونني، ولما صرت أرملة بعد أن أديت ما يجب على الزوجة الأصيلة تجاه زوجها المريض، ذهب تعاطفكما معي، ولم تعودا تشعران بشبابي الذي يذوي في يبوسة الوحدة والوحشة!!

وهي توجه نظرها لأمّها: أغلقت قنوات البوح بيني وبينك، فلم أجسر على أخبارك أنّ شقيق زوجي طلبني عشيقة له، ولما رفضت؛ أدمن وزوجته دهس مشاعري كلّ ليلة، لم أقل لكِ أنّ أحمد زميلي لمّح لي كثيرًا أنّه يريد

علاقة بلا أعباء. كيف أوصّل لكِ مشاعري وقد وضعت بيني وبين الحلال ألف حرام وحرام!! كان بإمكانكما أن تكونا جزءًا من سعادتي، وتشاركا في الحفاظ على بناتي معي!!

وقفزت من مقعدها ولم تنتظر أن تسمع ردًّا.

خرجت مسرعة وصكّت الباب خلفها، وبين جدران غرفتها كان البكاء مختلفًا هذه المرة؛ كان خوفًا من القرار الذي اتخذته، لكنها آبت إلى نفسها، ومسحت دموعها، وهزّت رأسها بتحدٍّ، وضغطت الأزرار، وقالت له: أتمّ إجراءات الزّواج العرفي، وسأتولّى أنا إيجاد الشقّة في المدينة المجاورة.

obeikandl.com

ومن عينيك قافيتي

حاولت أن تنام فلم تستطيع، وكيف يأتي وهي لم تبدأ طقوسه اليومية؟ فتحت ملفاتها الصوتية، فجاء صوته شاديًا باسمها يرتل أبياته التي كتبها لها، ثمانية أشهر وهي تسمعها كل يوم، لا.. بل في اليوم عدة مرات.

ما أجمل النهر في عينيك ملهمتي ... هذي عيونك أنهار من الشهد(*)

لو تضحكين يبوح العشق في بدني ... يا منبع الوحي يا تعويذة السعد

إني أحب وكل قصائدي حيرى ... تشكو العواذل أم تشكو من الكدّ

إني أحب وذاك الوجد يغزلني ... في حضرة الشوق آيات من الوجد

هذا (فراتك) تسقينا قصائده ... فما لروحي إلى عينيك من بد

لا تسأليني لِمَ أهـواك سيدتي ... هل يُسأل البحر عن جذر وعن مدِّ

لا تسأليني إلام الوجد عذبني ... هذي الملايين تدري أنني وحدي

أعوذ بالحسن في عينيك من أَمَمٍّ ... في بوحها المر ما للعتب من حدّ

أموت شوقًا وذا بين الورى قدري ... حتى على الموت لم أسلم من الحقد

(*) الأبيات للشاعر فكري ناموس.

obeikandl.com

وفى كل مرة وهو يسلم تلمع في عينيها دمعة، ثم تنام كما اشترط عليها، ضعي خدك على كفي وانظري في عينيّ وابتسمي، في كل مرة تودعه وتسلم وقبل أن تنهي المكالمة يذكرها بشروطه، تبتسم وتطمئنه أنها جدُّ فاعلة، فيقول مادمت ستمتثلي لشروطي سأكون سعيدًا، ترى كيف حالك اليوم؟.. ثم عادت لنفسها تنهرها أمازلت تقلقين عليه وقد قلاك دون جريرة منك ودون حتى تمهيد! هل نسيت كلماته الأخيرة لك وأنت تستعطفيه ليفهمك ما سر تغيره؟ لم يزد على أن قال: أتمنى لك حياة سعيدة مع من هو أفضل مني!

ألحت.. أرسلت.. حاولت أن تجلس معه لكنه أغلق كل النوافذ بينها وبينه، وفي عقلي سؤال بعرض الفضاء لن أكف عن توجيهه لنفسي.. لماذا؟ ومع كل قسوته وإنكاره لي. لا أعلم لماذا يظل ساكنًا في دمي؟ لماذا عباراته وكلماته العذبة تحتل عقلي ولا تغادره؟ هل من يملك هذه اللهفة يملك أيضًا كل تلك القسوة؟

كان يحاصرني بحبه في التليفون وفي صندوق رسائلي وزياراته للقصر، واقف بجانبي في كل الأمسيات. دق التليفون وهو في يدها فارتعبت لكسره للسكون الذي صنعته لاستضافة طيف الذكريات..

- آلو، من؟

- داليا، أنسيتِ صوتي؟

- حاتم صادق. ياه، أين أنت من زمن؟

وبصوت تقفز منه الضحكة: الحمد لله خفت أن تكوني نسيتني بطول غربتي. كيف ندواتكم وأمسياتكم يا أجمل منسقة نشاط؟

بصوت دافئ كسول: ننتظرك أيها الشاعر الرقيق، هل لك في أمسية أعد لها من الآن تكون أنت فارس الشعر فيها؟

- على شرط أن أسمع قصيدتي (يا عذبة الصوت) بصوتك في تلك الأمسية.

بتأكيد: شرف لي أن ألقي شعرك. تعالى إلى القصر لنرتب للأمسية وتعطيني القصيدة.

وفى الموعد المحدد وقف على باب مكتبها مستأذنًا، وقامت بقامتها الرشيقة وأسرعت ومدت إليه يدها، وفي صوتها ألف تحية وتحية:

- أهلًا أستاذ حاتم. ثلاث سنوات لم تشرفنا في هذا المكتب، ولم تغرد في أماسينا.

بابتسامة أضاءت وجهه الأسمر النحيل وهو يمد يده مسلمًا ولم يأتِ بي بعد ثلاث سنوات إلا أنت.

باندهاش قالت: أنا!!. كيف؟

obeikandl.com

وهو يثبت عيناه في عينيها: نعم أنت، وخبر بلغني عنك. وألحَّ عليها السؤال عن الخبر. قالت: ما هو الخبر الذي جاء بك إلي؟

– عفوًا. هو خبر ليس سعيدًا أبدًا، لكنه جدد لي أملًا.

وبسرعة التقطتها وهزت رأسها بأسى وهي تقول: فسخ خطوبتي من علاء؟

لم تشأ أن تقول، بل هروب علاء مني، فهناك أشياء لا نقوى على التصريح بها لمرارتها؛ وللشرخ الذي تشقه في جدار النفس نشفق على أرواحنا منه.

قال وهو يودع نظرته كل ما يريد:

– نعم داليا. هل نسيت؟

نظرت إليه بابتسامة حائرة بين الاستنكار الخفيف والشفقة الخفيفة، وهو يصر على تذكيرها وإن نسيت! هل تنسى حجرة مكتبك هذه ما بُحت به لها، هي على حالها لم تتغير، نفس المقاعد بجلدها البني وهذه المنضدة ذات الزجاج "الفيميه" التي طالما جلسنا إليها ونحن ننتقي أيَّ القصائد ستلقيها علينا، حتى مزهرية الورد تلك المذّهبة ذات الورود البنفسجية كم أسمعتها همسي بحبي لك حينما تنشغلين عني بترتيباتك للأمسيات، أما هذه اللوحة التي تتعامد على رأسك بشبيهتك الفلاحة كأنها أنت بوجهها

obeikandl.com

الأسمر البيضاوي وقسماتها الناعمة وحرامها الأسود الذي تركته ينسدل بإهمال مثير كشالك الحريري الذي أراه الآن، فقد ظلت عالقة بخيالي تدلني عليك. إن نسيت أنت فهذه الجمادات لن تنسى، سالت دموعها فأسرعت لحقيبتها، وأخرجت منديلها تجففها وهي تقول: قرأت كل ذلك في عينيك أيامها لكن كان هناك علاء، فأظهرت لك أني أمية لا أفك قراءة أحاديث العيون.

قال وقد قرأ ما يقوله قلبها قبل لسانها: أعرف. ومد يده في جيبه وأخرج ورقة وقدمها لها قائلًا:

– هذه قصيدتك، كتبتها عيناك قبل أن تكتبها يدي، فهي لك ومنك وبك.

فتحتها بلهفة وبدأت تقرأ، لاحظ أن ملامحها تتصاعد فيها الدهشة، اتسعت عيناها أكثر، قطعت القراءة، وقالت بإنكار: هل هذه قصيدتك؟.. متأكد؟

بثقة: نعم قصيدتي. كتبتها فيك من عامين.

– اعذرني سأعيد سؤالي بطريقة أخرى: متأكد أنت أنها قصيدتك، وليست لشخص آخر؟

وهنا أمسك من يدها الورقة مستأذنًا: لو سمحت أعطني الورقة. لست منتحلًا ولا سارقًا. تركت له الورقة وهي تقول: أسمعها لك من ذاكرتي دون ورقة.

ورددت على أسماعه القصيدة كاملة، برقت عيناه فزعًا، وبغضب كأنه النار العتيدة الموقدة قال:

– من أوصلها لك؟ ولم يعلم بها إلا اثنان من أصدقائي فقط؟! ولم أنشرها بعد، ولم ألقها في أي محفل، أردت أن تصلك مني أنا خبأتها ليوم كهذا!

مازالت منزعجة مأخوذة بما ترى أمامها، أعاد عليها السؤال، تنبهت وانتفضت من مكانها، وقالت:

– أهداني إياها أحدهم، وأخبرني أنه كتبها فيّ أنا.

بحدة قال: من؟

وكأنها لم تسمع، أكملت: ثمانية أشهر وأنا أسمعها كل يوم...

قاطعها بنفس حدته: قولي من؟ لن أتركك حتى تخبريني؟

بإصرار قالت: لن أخبرك حتى لا أحدث فتنة بينكما؟

– لن أعاتبه. يكفيني أن أعرف كيف خرج شعري دون إذني؟!

– لن أخبرك.

– أحببت سارقًا وتكتمي عليه!

قرعت الكلمة قلبها كالمطرقة، وقالت: ليس سارقًا.

– هو سارق. ألم يقل أنه كتبها فيك؟

تحرك خاتمها بقلق وبشيء من التلعثم: ربما سمعها منك أحد، ووصلت شفهيًّا لغيره حتى وصلت لي.

– هو علاء. احلفي أنه ليس علاء. أريحيني.

بضحكة باهتة: هذا يحسب لك.. أن يتهادى المحبون شعرك كأنه فرائد اللؤلؤ.

وهو يحاول أن يهدأ فيضع يده على وجهه، وينزل بها ماسحًا رقبته: رد فعلي كان سيختلف لو لم يقل لك أنه كتبها فيك، لن أتركك حتى تخبريني من؟

وهى تغمض عينيها: نعم، علاء.

بصوت أكثر هدوءًا: أرحتني الآن.. فبيني وبين علاء واحد من الثلاثة الذين سمعوها مني، صديقنا المشترك وحيد طلعت. عرفت مسارها الآن، لكن علاء شاعر مجيد لم انتحلها؟

بعصبية: لا تسلني. سله هو.

عيناه لم تحتملا أجفانها المضمومة طويلًا، فقال ليزيح تلك الأجفان: لا تحزني داليتي، وإن كان ادعى أنها لك فهي لم تكتب في الواقع إلا لك، كنت أمامي أناديك بها، وكم روادني حلم أن أسمعك وأنت تلقيها بصوتك الدافئ العذب.

ذهبت بعيدًا هناك إلى ذكريات وكلمات طالما أجهدتها تذكرًا وترديدًا، حتى حرك يده أمام عينيها قائلًا:

– داليا، أين ذهبت؟

obeikandi.com

أطرقت هنيهة ثم قالت: معك.

قال وهو يبتسم فبدت أسنانه كأنها اللؤلؤ تضئ وجهه الأسمر النحيل:

– لن أتنازل وستلقي القصيدة؟

بتحدٍّ: نعم.

وكان مناسبًا أن ترتدي لهذه الأمسية فستانًا جديدًا، فتلك القصيدة ليست كأي قصيدة، فهي قصيدة الصدق والادعاء، ولكن في كلتا الحالتين من صدق ومن ادَّعى لم يرَ إلا أنا فيها، فذهبت لأحد "المولات" الشهيرة وانتقت بعناية ثلاث قطع.. بنطلون، جاكيت، بلوزة. وذهبت لتدفع الحساب، وفي الطرقة المؤدية للكاشير اصطك كتفها بأحدهم، فالتقت أعينهما للاعتذار، فاكتشفت أنه هو واكتشف أنها هي!

قال: داليا!

ومازالت عيناها منعقدة بالدهشة: أنت بخير؟

– الحمد لله بخير.

وقبل أن تكمل، جاءته فتاته، لفت ذراعها حول ذراعه، وفي يدها حقيبة كبيرة الحجم،عليها صورة فستان زفاف، تقفز الفرحة من عينيها أما هو فاحتار أين يضع وجهه ليتحاشى نظراتها الأسيفة المعاتبة، واستحال كل شيء أمامها إلى لا شيء، مضت ونفسها تقرعها تجلدها عشت عامًا

كاملًا بعده.. موهومة مهووسة بعالمه الساحر ولم تكتشفي إلا الآن أنه ممثل قدير يجيد التقمص والخروج والدخول في الشخصية، حتى هجره لك دون أسباب لم يغير قلبك عليه، وبعد أن عرفت أنه انتحل قصيدة حاتم ونسبها لنفسه، ظللت بنفس اللهفة نفس اللوعة، أكان ضروريًّا أن ترى ما رأيت لتسدلي الستار على قصته معك، ألا تتذكري تلك الفتاة التي تتأبط ذراعه؟ مريم حسين بنت صاحب دار النشر التي ينشر فيها دواوينه. كان عليك أن تفهمي كلمات سقطت من عباراته ولم تلتفتي إليها. أتذكرين عندما قال: كم أتمنى يا داليا أن تكون هذه الفيلا والسيارة التي أمامها وحتى الخدم الذين يروحون ويغدون أمامها ملكي فكنت تضحكين وتقولين: ألا يكفي شقة تمليك؟! لا يشغلني إلا وجودك معي ولو في شقة بسيطة كلما رأى ملابسك الفاخرة، قال: عندما نتزوج لن نستطيع أن ننفق في الملابس كل هذا الإنفاق. استعدي من الآن، لم أكن أشغل بالي بهذه الكلمات. أعرف أنه مهندس لا يملك إلا مرتبه وأحلامه وأبيات أشعاره، وهذا كان يكفي ليملأني سعادة، فرقته وحنانه وحبه لي يهون معهم كل شيء، جرت خطواتها المتثاقلة ورأسها يدور في وهم صنعته أداها إليه تركيبة رومانسية جبلت عليها، طالما أسعدتها لكنها الآن تمنت لو أعيد خلقها من جديد دون هذه المشاعر التي أضنتها ألمًا وحسرة. وقفت أمام المسرح تتابع العمال وهم يشيدونه في حديقة القصر، وذهبت لمكتبها تتابع اتصالاتها

بالشعراء وفرقة التنورة التي ستتخلل إلقاء القصائد، اطمأنت أن كل شيء على ما يرام، كان هناك رسالة عقدت العزم على إرسالها.. فكتبت " حتى الأبيات التي أهديتها لي كانت منحولة كوعودك"

وفى المساء اصطف الحضور، وجلس علاء في المقعد المنصف للصف الأول أمام المسرح مباشرة تضئ بذلته السوداء اللامعة ورابطة عنقه الحمراء ذات النجوم الفضية وبعينيه الواسعتين اللتين ملئتا وجهه يتابعها ذهابًا وإيابًا حتى أطلت داليا على المسرح فأجالت بصرها في المكان، التقت عيناها بعينيه ورفت ابتسامة على جانب فمها، بدا جديدها في غاية الأناقة الجاكت التركواز اللامع مع البنطلون الأسود الواسع واعتنت بوضع غطاء رأسها بطريقة مبتكرة أودعت فيها كل فنون تنسيق الزهور، فبدا وجهها الأسمر البيضاوي لوحة رائعة بعدما سمحت لنفسها بوضع "ميك آب" أوضح مما اعتادت عليه، وبدأت بذكر اسم القصيدة وصاحبها د. حاتم صادق؛ فدوى التصفيق، فالتفت حاتم للناس محييًا واضعًا يده على صدره مطأطئ رأسه تواضعًا. اعتدل حاتم في جلسته ليسمع كيف تشدو حبيبته بكلماته المغزولة من نبضات قلبه وقطرات دمه وبدأت بصوتها الناعم الرخيم، أخيرًا داليا حلوتي التي رفضتُ من أجلها الزواج لأكثر من أربع سنوات رغم إلحاح أهلي عليّ كيف أنسى تلك الروح العذبة والحضور الألق وهذه العيون الضاحكة المتفائلة ذات الذكاء الحاد يا لحركتها الطائرة

وروحها العبقة، وظل يتابعها بقلبه وهي تشدو على المسرح حتى بلغت هذا البيت فوجد لمعة في عينيها

وأموت شوقًا وأبين الورى قدري حتى على الموت لم أسلم من الحسد

وجاء التصفيق الحاد فقد كانت مختلفة تلك الليلة، اكتسى صوتها العذب الحنون وترًا جديدًا. شجن شجيٍ، نزلت والتف حولها الشعراء كما العادة في كل أمسية يثنون على أدائها وصوتها وطلتها الآسرة. وهناك في زاوية القاعة وقف حاتم ينتظر أن تأخذ ما تستحق من شكر وتقدير، ولما شعر أنها تناديه بعينيها أن تعالى لأشكرك على بوحك لي بهذه القصيدة الرائعة، جاء وقلبه يسبقه وأمسك يدها بكلتي يديه، وخرجا من القاعة سويًّا عادت من سماوات أحلامها إلى أرضها العارية، عادت لتودع صوته لآخر مرة وضغطت "ديليت" على مقطعه المسجل ونامت، ولكن دون شروط.

obeikandl.com

obeikandl.com

فهرس المحتويات

الشمعدان النحاسي 5

كيس تراب 25

قرار بلسعة العقرب 36

لغم في كتاب 44

حلمي الذي أرتِّله 51

كارت شحن حضرتك؟ 75

موعد في الميدان 80

ولم يعد يأتي الربيع 86

الغرف المعتمة 93

obeikandl.com

بلقيس 97

كلمات 103

صباح الخير أيها الحزن 106

ومن عينيك قافيتي 115

obeikandl.com